أ.د/ عبد الحليم عويس

أسطورة إحراق طارق بن زياد للسفن

دراسة تاريخية نقدية









أ . د / عبد الحليم عبد الفتاح محمد عويس

(وشهرته د/ عبد الحليم عويس)

- حصل على ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية من جامعة القاهرة (كلية دار العلوم) سنة ١٩٦٨م بمرتبة الشرف الثانية
- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م
- حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (مارس ١٩٧٨) بمرتبة الشرف .
- عمل بجامعه الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من ١٩٧٤ حتى ١٩٩٤
- عمل أستاذاً زائراً لعدد كبير من الجامعات في الهند وباكستان ، وماليزيا ، والجزائر ، وتونس ، والسودان، وتركيا ، وغيرها
- حضر أكثر من مائة مؤتمر عالمي ، ومؤتمرات أخرى إقليمية
- أشرف على نحو ٧٥ رسالة ماجستير ودكتوراه في الحضارة والتاريخ فى جامعات مصر و جامعه الامام محمد بن سعود
- عمل نائب رئيس الجامعة الإسلامية بروتردام (هولندا)
- له أكثر من ٧٥ مؤلف شملت موسوعات فقهيه وتاريخية وحضاريه وتفاسير للقرآن

****

- عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية.
- عضو مؤسس لرابطة الأدب الإسلامي فرع القاهرة ،
- عضو مجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية .
- رئيس تحرير مجلة التبيان بمصر .
- عضو اتحاد الكتاب بمصر .
- عضو نقابة الصحفيين .
- عضو اتحاد المؤرخين العرب .



دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر . القاهرة - المنصورة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥ - ٠٢/ ..
المنصورة . ص.ب : ١٦٧

أسطورة إحراق
طارق بن زياد للسفن

دراسة تاريخية نقدية

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بطاقة الفهرسة

عويس ، عبد الحليم

أسطورة إحراق طارق بن زياد للسفن - دكتور/

عبد الحليم عويس . ط١. المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠م

١٤٤ص ، ٢٠سم

رقم الإيداع : ٢٣٦٣٦ / ٢٠٠٩م

الترقيم الدولي : ٥ - ٣٤٦ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع

المنصورة - ص.ب. : ١٦٧ ت ف : ٢٢٣٤٥٠٣ / ٠٥٠ .

محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

e_mail:mmaggour@hotmail .com

أسطورة إحراق طارق بن زياد للسفن

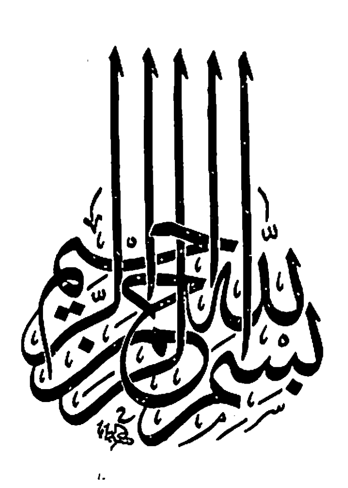
دراسة تاريخية نقدية

أ.د/ عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

رئيس تحرير مجلة التبيان




بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون في الأندلس

أسبانيا قبل الفتح الإسلامي :

حقَّقَ المسلمون تقدمًا واسعًا في شمال إفريقيا ، ووصلوا إلى المغرب الأقصا (يقابل ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية) المواجه لشبه جزيرة أيبيريا ، وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) ثم استُبدلَ حسّان بن النعمان والى إفريقيا ، عام (٨٥هـ) ، بموسى بن نصير الذي توجه من مصر إلى القيروان مصطحبا أولاده الأربعة الذين كانت لهم أدوار مهمة في التوسعات .

شرعَ موسى بن نصير بمعالجة نقاط الضعف التي واجهت المسلمين هناك ، فقرَّر العمل على تقوية البحرية الإسلامية ، وجعل القيروان قاعدة حصينة في قلب إفريقيا ، واعتمد سياسة معتدلة ومنفتحة تجاه البربر مما حوّل معظمهم إلى حلفاء له ، بل دخلوا في الإسلام وأصبحوا فيما بعد عماد سقوط أسبانيا في يد المسلمين ، واستكمل التوسع في شمال إفريقيا وتأمين المنطقة درءًا لتمرّدٍ قد ينشأ ضد السيادة الإسلامية .

وفي إحدى الحملات التي قادها موسى بن نصير بنفسه استولى

المسلمون على طنجة ذات الموقع المهم بين القارتين الأوروبية والإفريقية عام (٨٩هـ/ ٧٠٨م)، وحوّلها موسى بن نصير إلى مركز عسكري لتموين الحملات باتجاه المناطق المجاورة، وفي هذه الحملة برز طارق بن زياد.

لكنّ مدينة سبته عصت على تلك الفتوحات، حيث استطاع حاكمها الوالى البيزنطي يوليان الصمود بوجه المسلمين، لكنه فيما بعد لعب دورًا أساسيًّا في تشجعيهم ومساعدتهم على عبور المضيق إلى الأندلس.

الفتح الإسلامي للأندلس:

في عهد الوليد بن عبد الملك بين عامي (٩٢ ـ ٩٣هـ) خلال الخلافة الأموية وفي عام ٧١١م أرسل موسى بن نصير القائد الشاب طارق بن زياد من طنجة مع جيش صغير من البربر والعرب يوم ٣٠ أبريل ٧١١، عبر المضيق الذي سمي على اسمه، ثم استطاع الانتصار على القوط الغربيين وقتل ملكهم لذريق (Rodrigo roderic or) في معركة جواداليتي في ١٩ يوليو٧١١. أو معركة وادي برباط في ٢٨ رمضان ٩٢ هجري وظلت الأندلس بعد ذلك خاضعة للخلافة الأموية كإحدى الولايات الرئيسة، إلى

أن سقطت الخلافة الأموية سنة (١٣٢هـ) ، واتجه العباسيون إلى استئصال الأمويين ، وتمكن عبد الرحمن بن معاوية ـ عبد الرحمن الداخل ـ أن يفلت من قبضة العباسيين ، فهرب إلى أخواله في الشمال الإفريقي ، وأقام عندهم فترة من الزمن ، ثم فكر في دخول الأندلس ليبتعد عن العباسيين ، فراسل الأمويين في الأندلس .

بحلول عام ٧١٨ استولى المسلمون على معظم أيبيريا عدا جيبًا صغيرًا في الركن الشمالي الغربي حيث أسس النبيل القوطي بيلايو مملكة أستورياس في العام نفسه ٧١٨ ، واستطاع بيلايو الدفاع عن مملكته في وجه المسلمين في معركة كوفادونجا عام٧٢٢ ، واستمر موسى بن نصير في محاولاته لفتح الأندلس .

التوسع الإسلامي :

واصل المسلمون التوسع بعد السيطرة على معظم أيبيريا لينتقلوا شمالا عبر جبال البرنييه حتى وصلوا وسط فرنسا وغرب سويسرا . هُزِم الجيش الإسلامي في معركة بلاد الشهداء(بواتييه) عام٧٣٢ أمام قائد الفرنجة شارل مارتل : محاولة السيطرة على البرتغال: أرسل القائد موسى بن نصير إلى ابنه عبد العزيز ليستكمل الغزوات في غرب الأندلس حتى وصل إلى لشبونة أمّا موسى

ابن نصير وطارق بن زياد فقد اتجها شمالًا إلى برشلونة ثم سرقسطة فشمال تجاه الوسط والغرب حتى انتهت السيطرة على كل الأندلس في ٣ سنين ونصف .

خلافة قرطبة :

تشمل هذه الفترة قيام الدولة الأموية في الأندلس مما بين دخول عبد الرحمن الداخل قادمًا من دمشق إلى شمال إفريقيا ثم الأندلس ١٣٦ هجرية حتى آخر خليفة أموي في الأندلس وهو هشام الثالث المعتد بالله سنة ٤١٦ هجرية وازدهار عصر الدولة الأموية في الأندلس ، وتحولت هذه الدولة من إمارة في عهد عبد الرحمن الناصر الذي سمى الدولة بالخلافة ولقب .

وأسس الأمويون حضارة إسلامية قوية في مدن الأندلس المختلفة ، وهى أطول وأهم الفترات التي استقر فيها المسلمون في الأندلس الدولة الأموية ونقلوا إليها الحضارة الأدب ، والفن ، والعمارة الإسلامية ، وآثار الأمويون هي الطابع الغالب على الأندلس بأكملها ، ومن روائع ما خلفه الأمويون في مسجد قرطبة ، وقد كان لعبد الرحمن الداخل جهود حضارية متميزة فقد جمّل مدينة قرطبة وأحاطها بأسوار عالية وشَيَّدَ بها المباني الفخمة

والحمامات على شاكلة الحمامات في دمشق ، والمدن الإسلامية ، والمدارس ، والمنتديات ، والمكتبات .

وكان الطراز الأموي هو أبرز سمات الفن الأندلسي ، وبرع الأمويون في شتى الفنون فن النحت على الخشب ، والزخرفة ، والنسيج ، والتحف المعدنية ، والنحاسية التي نقلوا صناعتها من دمشق حيث أصبحت مدن الأندلس منارة للعلم والحضارة ، وكانت قرطبة تنار بالمصابيح ليلا لمسافة ١٦ كم وأحاط الخلفاء الأمويون مدن الأندلس بالحدائق الغناء فكانت قبلة للناظرين وما تركوه وخلفوه لنا من آثار ينطق بالعظمة والجلال .

وحكام الأندلس الأمويون هم :

* عبد الرحمن الداخل الملقب (صقر قريش) - حتى عام ١٧٢ هجرية

* هشام الأول بن عبد الرحمن - من عام١٧٢ إلى عام ١٨٠ هجرية .

* الحكم بن هشام - من عام ١٨٠ إلى عام ٢٠٦ هجرية .

* عبد الرحمن الأوسط بن هشام - من عام ٢٠٦ إلى عام ٢٣٨ هجرية .

* محمد بن عبد الرحمن ـ من عام ٢٣٨ إلى عام ٢٧٣ هجرية .

* المنذر بن محمد ـ من عام ٢٣٨ إلى عام ٢٧٥ هجرية .

* عبد الله بن محمد ـ من عام ٢٧٥ إلى عام ٣٠٠ هـ .

* عبد الرحمن الثالث الناصر ـ من عام ٣٠٠ إلى عام ٣٥٠ هجرية .

* الحكم بن عبد الرحمن ـ من عام ٣٥٠ إلى عام ٣٦٦ هجرية .

* هشام الثاني بن الحكم ـ من عام ٣٦٦ إلى عام ٣٩٩ هجرية .

ملوك الطوائف :

بدأ عصر ملوك الطوائف بالأندلس عام (٤٢٢هـ) عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية بالأندلس ، وكان هذا الإعلان بمثابة إشارة البدء لكل أمير من أمراء الأندلس ليتجه كل واحد منهم إلى بناء دويلة صغيرة على أملاكه ومقاطعاته ، ويؤسس أسرة حاكمه من أهله وذويه ، وبلغت هذه الأسر الحاكمة أكثر من عشرين أسرة أهمها :

* دولة بن عباد بإشبيلية (٤١٤هـ ـ ٤٨٤هـ) .

* بني جهور في قرطبة (٤٢٢هـ ـ ٤٤٩هـ) .

* بني حمود بمالقة (٤٠٧هـ ـ ٤٤٩هـ) .
* بنى زيري بغرناطة (٤٠٣هـ ـ ٤٨٣هـ) .
* بنى هود بسرقسطة (٤١٠هـ ـ ٥٣٦هـ) .
* بنى رزين بالسهلة (٤٠٢هـ ـ ٤٩٧هـ) .
* بنى ذى النون بطليطلة (٤٠٠هـ ـ ٤٧٨هـ) .
* بني الأفطس في بطليوس (٤١٣هـ ـ ٤٨٧هـ) .

دولة المرابطين :

حكمت دولة المرابطين شمال غرب إفريقيا والأندلس في الفترة من ١٠٥٦م حتى ١١٤٧م ، واتخذت الدولة الجديدة فاس عاصمة لها من ١٠٥٦ وحتى ١٠٨٦م حيث انتقلت بعدها إلى مراكش .

أما المرابطون الذين أسسوا هذه الدولة فهم قبيلة لمتونة الموريتانية ، بينما يرجع أصل التسمية إلى أتباع الحركة التي أسسها عبد الله بن ياسين ، وكان المرابطون يرابطون بعد كل حملة يقومون بها ، وهو ما جعلهم يتسمون بهذا الاسم .

وقد تولى الحكم في دولة المرابطين سبعة ملوك هم :

* أبو بكر بن عمر ـ ٤٨٠ ـ ٤٤٨ م .

* يوسف بن تاشفين ١١٠٧ ـ ١٠٦٢ م .
* علي بن يوسف ١١٤٣ ـ ١١٠٧ م .
* تاشفين بن علي ١١٤٦ ـ ١١٤٣ م .
* إبراهيم بن تاشفين ١١٤٦ ـ ١١٤٦ م .
* إسحق بن علي ١١٤٧ ـ ١١٤٦ م .
* يوسف بن تاشفين بن تالاكاكين ١٠٦٣ ـ ١٠٦٢ م .

وبسبب ضعف دول الطوائف عن الدفاع عن التراب الأندلسي ضد الهجوم الأسباني وسقوط طليطلة في أيدي الأسبان ، طلب الأندلسيون المعونة من قائد المرابطين في المغرب الأمير يوسف بن تاشفين أن يهب لمساعدة الأندلس وانتهت مساعدته بهزيمة كاسحة للأسبان في موقعة الزلاقة واستعادة بعض المدن لكنه فشل في استعادة طليطلة والقضاء على ملوك الطوائف ، وأصبحت الأندلس تابعة لدولة المرابطين في الأندلس الذين دافعوا عن الأندلس ضد الأسبان في عدة مواقع إلا أنهم فشلوا في الدفاع عن سرقسطة بقيام الثورة في المغرب بقيادة الموحدين وانهارت دولة المرابطين فانتقل حكم الأندلس إلى دولة الموحدين .

دولة الموحدين :

تأسست هذه الدولة على يد أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت (٤٨٥ ـ ٥٢٤هـ/ ١٠٩٢م ـ ١١٣٠م) وينسب إلى قبيلة هرغة بالمغرب التي قيل : إنها تنسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ.

لقب أبو عبد الله نفسه بالمهدي المنتظر ، ومن ثم جهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ودعا نفسه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، واتخذ منهجا في الفقه يقوم على الدراسة المباشرة للقرآن والسنة دون دراسة فروع المسائل الفقهية التي كانت سائدة في المغرب آنذاك على المذهب المالكي .

وقد قامت هذه الدولة على الدعوة إلى التوحيد معلنين اختلافهم مع المرابطين داعين إلى نزع الملك منهم حيث رأوا فيهم ابتداعا في الدين وخروجا على تعاليمه .

* عبد المؤمن بن على الكومى ١١٦٣ ـ ١١٣٣ .
* أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ١١٨٤ ـ ١١٦٣ .
* أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور١١٩٩ ـ ١١٨٤ .
* محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف ١٢١٣ ـ ١١٩٩ .

القرن الخامس للهجرة في الأندلس
الأندلس في مصر جوهرة العالم
قرن التمزق والطوائف

ـ في بداية الحديث عن الحالة السياسية في الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة ، وهى الفترة التي سيطر فيها على قرطبة بنو عامر ثم تلاهم عصر الفتنة وبنو جهور وبنو عباد ـ فإننا سنكتفي بإلقاء بعض الضوء على هذه القوى التي تعاورت الحكم والغلبة في الأندلس خلال الفترة المذكورة .

عصر بني عامر مقدمة عصر الفتنة :

لقد نجح أبو عامر محمد بن أبى عامر (المنصور) القحطاني المعافري في الوثوب إلى الحكم في الأندلس عندما تولى الأمر هشام بن الحكم (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ) الذي مات أبوه وخلفه صبيًا في العاشرة من عمره ، فقامت على رعايته أمه « صبح » التي نجح محمد بن أبى عامر في استمالتها إليه ، بمهارته وذكائه ، وقد استطاع ابن أبى عامر أن يخوض بحور الفتن والدسائس التي كانت سائدة ، وأن يخرج إلى الشاطئ ظافرًا ، وأن يتسنم ذروة الحكم الحقيقي

للأندلس هو وأسرته من بعده فترة تزيد على ثلاثة عقود ، بحيث طغى نفوذ العامرية خلال هذه الحقبة على الخلافة الأموية وإن كان الحكم باسمها .

وقد نجح المنصور في توفير الأمن للرعية ، كما أعاد إلى الأندلس الإسلامية هيبتها ، إذ قام بخمسين غزوة طوال حكمه البالغ خمسًا وعشرين سنة لم يهزم فيها قط [١] .

وبوفاة ابن أبي عامر سنة (٣٩٢ هـ) وابنه عبد الملك ، الذي لم يدم حكمه أكثر من سبع سنوات ، وكان كأبيه كفاية ومقدرة ـ بوفاتهما تعتبر الدولة العامرية قد انتهت سنة (٣٩٩هـ ـ ١٠٠٩م) .

والحقيقة أن أكبر خطأ ارتكبه ابن أبي عامر ـ بالرغم من كل حسناته ـ أنه أزال هيبة الخلافة الأموية من نفوس الناس حين تسلط عليها ، وفصل بينها وبين الشعب ، ولعل هذا كان من أكبر الأسباب فيما أصاب الأندلس بعد ذلك من نكبات الفتنة التي استمرت من (٣٩٩ هـ وحتى ٤٢٢هـ) ، حيث انتهى الأمر

---

(١) انظر الحميدي : الجذوة ٧٨ ، ٧٩ – وانظر ابن سعيد : المغرب ١ – ١٩٩ ، ٢٠٠ وما بعدها – وانظر القلقشندى : صبح الأعشى ٥ – ٢٤٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ – وهذه الغزوات وردت في ابن الدلائي : نصوص عن الأندلس ص٧٥ .

بسقوط دولة بني أمية ، وتبعه دخول الأندلس عصر اضمحلال سياسي ، وهو عصر الطوائف !

لقد كان اعتزاز الناس في الأندلس بالبيت الأموي أقوى بكثير من اعتزاز الناس به في المشرق [(١)] ولعل للاختلافات الجنسية أثرًا في ذلك ، كما أن للبيت الأموي على الأندلس أيادٍ كثيرة سياسية وحضارية طيلة ثلاثة قرون وبخاصة على عهدي الناصر والحكم ، ولذلك كله كان البيت الأموي أملا للمخلصين للإسلام في الأندلس ، باعتباره البيت الذي التفت حوله القلوب وضعفت على عتبته العنصريات .

وبعد سقوط دولة بني عامر عاشت الأندلس وقرطبة ـ فترة الفتنة التي امتدت من سنة (٣٩٩ هـ حتى سنة ٤٢٢ هـ) .

ويكفي للدلالة على ما تمتاز به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه قد تقلب على الأمر فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم مرتين ، وبعض هؤلاء الحكام من الأمويين [(٢)] وبعضهم من

---

(١) جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤ – ٢٢٥ (هامش) وانظر علي أدهم : المعتمد بن عباد ٣٨ .

(٢) وهم : محمد الثاني بن هشام ، وسليمان بن الحكم ، وهشام الثاني ، وعبد الرحمن الرابع وعبد الرحمن الخامس ابن هشام ، ومحمد الثالث بن عبد الرحمن ، وهشام الثالث بن عبد الرحمن (راجع : القلقشندي : صبح الأعشى ٥ – ٢٤٥ ، ٢٤٦) .

بني حمود[١] الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة (٤٠٦هـ) ، وأخذوا يعبثون بالحكم فيولون ويعزلون كما يشاؤون ، ويطلقون من الألقاب ما يحلو لهم ، وبديهي أن تولي بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية .

وقد انفكت عروة الدين من النفوس ، بعد أن تفككت مشروعية الحكم ، فأصبح الأمر صراعًا جنسيًّا بين عرب ، وبربر ، وصقالبة [٢]، واستعان بعضهم بالنصارى على بعض .

لقد أحس الخليفة الشرعي هشام بن الحكم في أخريات أيام الدولة العامرية بعمق الكارثة التي توشك أن تحيط بالأندلس وبالخلافة الأموية ، كما أحس بأنه أمام بني عامر لا يعدو أسيرًا في قصره ، محجوبًا عن الناس مقصيًّا عن دفة الحكم [٣].

ولئن كان ابن عم هشام الملقب بمحمد بن هشام الثاني (المهدي) قد استطاع ـ بمعونة المؤمنين بضرورة الخلافة الأموية ـ أن يصل إلى

---

(١) وهم :على الناصر بن حمود ، القاسم المأمون بن حمود ويحي بن على بن حمود (راجع المكان السابق).

(٢) انظر د. على حبيبة : مع المسلمين في الأندلس ص٢٢١ ، ٣٤٠ ، وانظر محمد بن عبد الله عنان دول الطوائف ٢٠، ٢١ .

(٣) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٠٤ .

الحكم في محاولة أخيرة لإعادة خلافة بني أمية المتداعية [(١)] (١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ) (١٠٠٨ م) ـ فإن بني أمية في الأندلس ، لم يكونوا بقادرين على الصمود في ميدان النضال طويلا ، ذلك لأنهم لم تكن لديهم بعد العوامل الأدبية والدينية والتاريخية قوة مادية يعتد بها [(٢)] . كما أنه خلال الفترة التي أمضاها المنصور بن أبي عامر في الحكم كان قد اعتمد على البربر والصقالبة في تكوين جيوشه وفي بقية أعماله ، وما إن توفي « المنصور » حتى أصبح هؤلاء قوة ليس من السهل القضاء عليها ، فضلا عن أنها أضعفت من كيان بني أمية كثيرًا ، ولم يعد ممكنًا ـ في ظل هذا الوضع ـ لأية سلطة ـ أموية أو غير أموية ـ أن تثبت وتستقر [(٣)] ، ولذا . . . فلم يمض غير قليل حتى وقعت بين الخليفة المهدي والبربر فتنة أودت بحياته ، وأعادت الخليفة « هشامًا المؤيد » إلى الخلافة بعد غيبة أربع وثلاثين سنة عنها ، وكان ذلك على رأس

---

(١) انظر المراكشي : المعجب ٨٦ ، ٨٧ ، وانظر محمد بن عبد الله عنان : الدولة العامرية ص١٤٦ ط١ مطبعة مصر ١٩٥٨م .

(٢) انظر محمد بن عبد الله عنان : دول الطوائف ١٣ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٠م .

(٣) انظر المراكشي : المعجب ٨٦ .

القرن الرابع الهجري .

ويصف لنا « ابن بسام » ـ نقلا عن « ابن حيان » ـ الأعوام السبعة الأولى للفتنة (٤٠٠ ـ ٤٠٧ هـ) ـ (١٠٠٩ ـ ١٠١٦ م) ـ بأنها « كانت شدادًا نكدات صعابًا مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة [١] » ـ كما يصف لنا ـ نقلا عن ابن حيان كذلك ـ المستكفي الذي بويع على قرطبة سنة (٤١٤ هـ) بعد أن قتل ابن عمه عبد الرحمن « الخامس » ابن هشام المعروف بالمستظهر [٢] بمساعدة بعض الأرذال . . .يصف ابن بسام ذلك بقوله : « ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر ، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلا عطلًا منقطعا إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة ، فأملق حتى استجاز طلب الصدقة .

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٢٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة وانظر المراكشي المعجب ص٩٠ .

(٢) انظر ترجمته في ابن الأبار : الحلة السيراء ٢ – ١٢ وما بعدها .
وانظر ابن سعيد : المغرب ١ – ٥٤ .

رأيته ـ أي ابن حيان مؤرخ الأندلس ـ أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره ، يقصد أهل الفلاحة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليمًا ومخاطبة »[١] .

والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن مسؤولية الفتنة لا تقع على طائفة بعينها ، بل تقع على الجميع ، ويتحمل فيها العرب والبربر وبنو أمية أقدارًا تكاد تكون متساوية ، وذلك على عكس ما يذهب إليه كثير من المؤرخين ـ ومنهم ابن حزم ـ من تحميل البربر المسئولية وحدهم[٢] .

فالحق أن ما أصاب الأندلس في هذه الفترة كان فتنة عامة يتحمل الجميع مسؤولياتها ، وقد أدت في نهايتها إلى سقوط الأندلس ـ التي كانت تحكمها خلافة واحدة ـ فهوت إلى معترك مروع من التمزق والفوضى ، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويرة شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوبا ، ومن شاطئ البحر الأبيض من طركونة شرقا حتى شاطئ المحيط الأطلنطي غربا ، إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لا تربطها

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨٠ وانظر ابن عذارى : البيان المغرب ٣ – ١٤٠ وابن سعيد : المغرب ١ –٥٤ ، ٥٥ .

(٢) انظر المقرى : نفح الطيب ١ – ٤٠٦ في حديثه عن دولة العلويين «بنى حمود » .

أية رابطة مشتركة [١] .

وكان انقراض ملك بني مروان ـ الأمويين ـ بالأندلس على رأس مائتين وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يومًا [٢] .

ومن الضروري هنا أن نذكر أن سنة (٤٢٢هـ ـ ١٠٣٠ م) ـ التي سقطت فيها الخلافة الأموية بالأندلس ـ كانت بداية انهيار الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية .

وعلى الرغم من الخلاف في الرأي حول مسؤولية أبى الحزم جهور بن محمد ابن جهور ، وحول التقدير التاريخي لدوره ـ فإن هذا الرجل هو الذي أعلن رسميًا ـ نتيجة عدم وجود من يستحق لقب الخلافة من بنى أمية ـ سقوط الدولة الأموية ، وبداية عهد الطوائف ، واستئثاره نفسه بحكم قرطبة ، التي زعم أنه سيحكمها حكمًا شوريًا جماعيًا ، لكن ذلك بالطبع لم يكن أكثر من شعار شأنه شأن سائر الشعارات !!

وبأسلوب بديع يصور لنا « المقري » هذه الومضة الفاصلة في التاريخ ، والتي مَهَّدَتْ لها ظروف كثيرة ، وجني ثمارها بن جهور . . .

---

(١) عنان : الدولة العامرية ١٧٨ – دول الطوائف ١١ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ٢ – ٨ .

فيقول :

« وبنو جهور كانوا وزراء الأمويين ، ثم إنه لما انتثر عقد الخلافة استبد بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة [١] . وهذه كانت المرحلة الأولى في تخطيطه . . » .

« وقد كان ـ أبو الحزم ـ وزير في الدولة العامرية فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ، وعاقب الفتنة واعترضت ، تحيز عن التدبير مدتها ، وخلى أعباء الخلافة وشدتها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر ، ويدبر الأمر معهم ويدبر [٢] » .

وهذه هى الخطوة الثانية في تخطيط أبى الحزم الداهية ـ أما الخطوة الثالثة والحاسمة ، فكانت عندما « انقرضت الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العامرية ـ فاستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبر أمرها بالجد والعزم ، وضبطها ضبطًا أمن خائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجو فطار ، وقضى اللبانات والأوطار [٣] » .

---

(١) نفح الطيب ١ – ٢٨٢ .

(٢) المكان السابق .

(٣) نفح الطيب ١ – ٢٨٢ ، ٢٨٣ وانظر القلقشندي : الصبح ٥ – ٢٤٩ ، وانظر : د : أحمد شلبي : الموسوعة ٤ – ١١٦ وعلى أدهم : المعتمد بن عباد ٤٠ – ٤١ . وانظر محمد عبد الله عنان دول الطوائف ٢٠ .

وانتثر عقب هذا عقد الأندلس بين العناصر الثلاثة المتصارعة إلى أكثر من عشرين دولة [١] : البربر في الجزء الجنوبي ، والصقالية في القسم الشرقي ، أما باقي البلاد فكانت بين أسرات العرب [٢] .

ومن هذه الممالك :

١ ـ موالي العامرية (في الشرق الأندلسي) ، ويندرج تحتها حكم (خيران العامري) للمرية ومرسية ، وحكم (مجاهد العامري) وابنه لدانية والجزائر (٤٠٠ ـ ٤٦٨ هـ) إلى أن ضمهما بنو هود إلى ملكهم .

٢ ـ بنو زيري (في الجنوب) في غرناطة ومالقة ، ثم توسعت فضمت قبرة وجيان ومالقة ، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس ، وبنو ذي النون في طليطلة ، وبنو رزين أصحاب السهلة .

٣ ـ بنو عباد أصحاب أشبيلية (٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ) ، الذين ظلوا يتوسعون حتى أصبحوا أكبر دولة من دول الطوائف [٣] .

وبنو هود أصحاب سرقسطة ، وبنو القاسم الفهريون في

---

(١) انظر عنان : دول الطوائف ١٦ .

(٢) انظر بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٠٦ (طبعة بيروت الكاملة) .

(٣) انظر المرجع السابق ٣٠٧ .

البونت ، وبنو حمود الحسنيون بالجزيرة .

٤ ـ بنو جهور (موالي الأموية) في قرطبة ، وتشمل إمارتهم مدنًا أخرى مثل جيان وبياسة وأيذ [١] وقد سقطت قرطبة بعد ٤٠ سنة من حكمهم في يد بني عباد ، وزالت ـ بالتالي ـ دولة بني جهور .

لقد وجد بين هذه الإمارات نوع من التنافس على السلطة ، والتوسع على حساب بعضهم البعض ، واتخاذ الألقاب والنعوت ، بما استجلب نوعًا من السخرية منهم ، وقد شوهد من بين حكام هذه الإمارات ست دول يحمل رئيس كل منها لقب ملك ، وهذه الدول هي : قرطبة ، وأشبيلية ، وقرمونة ، واستجة ، ومالقة ، والجزيرة الخضراء ، وغرناطة [٢] .

وكان استقلال هذه الإمارات استقلالا شكليًّا ، فقد كان كثير

---

(١) انظر القلقشندي : صبح الأعشى ص٢٤٨ وما بعدها ، وانظر الدكتور أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامي ٤-١١٦ وما بعدها ، وانظر إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسي) عصر الطوائف والمرابطين ص١٢ وما بعدها . وعلى أدهم المعتمد بن عباد ٧ ، ٨ وانظر د. علي حبيبة مع المسلمين في الأندلس ٢٤٣ ، وجورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ٤ – ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٢) سيديو : تاريخ العرب العام ٢٧٨ . .

منها يدفع الجزية للأذفونش ملك قشتالة .

أما من ناحية من تنتهجه هذه الإمارات من سياسة وإدارة فليس بينها تفاوت يذكر ، فكلها نظم مستبدة ، مستهينة بالدماء ، مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران [١] ، واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء . « وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه ، وتعدد وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه [٢] » .

وعوضًا عن أن تتحد قواهم في مواجهة عدو صليبي مشترك ، تشتتوا ، وتقاتلوا حتى ضعفت قواهم ، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات النصارى ، كذلك كانت حروبهم الداخلية سببًا في أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين ، مما أتاح الفرصة للنصارى أن يبدءوا في استقطاع أجزاء من أرض الأندلس الإسلامية ، وأن يبدءوا ـ من هذا العصر الشاذ ـ رحلة الاسترداد الطويلة الكئيبة .

---

(١) د – إحسان عباس (عصر الطوائف والمرابطين) ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ١ – ٦٠ بتحقيق مصطفى السقا وزملائه ، وانظر محمد عبد الله عنان دول الطوائف ٤١٩ .

وفي وسط هذا المحيط الصاخب احتلت قرطبة - مدينة ابن حزم - مكانة مهمة ، نظرا لدورها البارز في التاريخ الأندلسي ، وبخاصة في الفترة التي نؤرخ لها ، والتي قلنا إنها تمتد من قيام دولة بني عامر وحتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

وفي هذه الفترة كانت قرطبة ما زالت بحق - كما يصفها كثير من المؤرخين - « جوهرة العالم »[1] على الرغم من كل ما أصابها من محن .

ولما كانت لقرطبة مكانة خاصة في بحثنا هذا فإنها تستحق منا أن نخصها بمزيد من الدراسة التاريخية حتى نصل إلى العصر الذي نؤرخ له .

كان فتح قرطبة على يد « مغيث الرومي » الذي أرسله إليها « طارق » فحاصرها ثلاثة أشهر ، وفتحها في المحرم سنة (٩٣ هـ - أكتوبر ٧١٦ م) بقوة قوامها سبعمائة فارس[2] .

ومع أن قرطبة[3] الإسلامية قد مرت بأربعة أدوار : ثلاثة منها :

---

(١) د. فيليب حتى : العرب تاريخ موجز ١٦٨ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ٢ - ٩ .

(٣) ترتفع قرطبة ٣٧٠ قدما فوق سطح البحر على الجانب الأيمن من المجرى الرئيسي لنهر (جودل كوفير) أي النهر الكبير ، ويفسر اسم قرطبة كثيرا على=

أدوار إنشاء ، ونمو ، وازدهار [١] ، والدور الرابع عصر تدهور واضمحلال [٢] ـ إلى أنه خلال عصر الخلفاء حافظت قرطبة على مكانتها كأعظم مدينة في أوربا ، وثاني مدينة في الدنيا بعد بغداد [٣] .

* يوسف المستنصر ١٢٢٤ ـ ١٢١٣ .

* عبد الواحد الواحد المخلوع ١٢٢٤ ـ ١٢٢٤ .

* محمد العادل ١٢٢٧ ـ ١٢٢٤ .

* يحيى المعتصم ١٢٣٠ ـ ١٢٢٧ .

* إدريس المأمون ١٢٣٢ ـ ١٢٢٧ .

* عبد الواحد الرشيد ١٢٤٢ ـ ١٢٣٢ .

* علي السعيد ١٢٤٨ ـ ١٢٤٢ .

= أنه من الاسم القرطاجي الفينيقي الذي يعنى (المدينة الطيبة) وهو اسم أيبيري قديم (انظر مادة قرطبة في دائرة المعارف الإسلامية) .

(١) هذه الأدوار الثلاثة تبدأ بالسمح بن مالك الخولاني (١٠٠ — ١٠٢ هـ) وتنتظم عصر الدولة الأموية في مرحلة الإمارة أي إلى عهد عبد الرحمن الناصر ، ومرحلة الخلافة التي انتهت سنة ٤٢٢ هـ سنة ١٠٣١ م ، انظر المكان السابق .

(٢) انظر د — حسين مؤنس : « قرطبة » مقال بمجلة العربي عدد ٩٥ أكتوبر ١٩٦٦ .

(٣) المكان السابق .

* عمر المرتضى ١٢٦٦ ـ ١٢٤٨.

* إدريس الواثق الدبوس ١٢٦٩ ـ ١٢٦٦.

امتدت حكم الموحدين نحو قرن ونصف القرن فاتسع ملكهم وترامت أطرافهم، بسيد أن الحقيقة هي أن هذه الدولة أسرفت كثيرا في إراقة الدماء؛ بل كانت من أكثر الدول سفكا لها حيث استعملوا أقسى الوسائل في تصفية دولة المرابطين.

نجح الموحدون في إنقاذ الأندلس في موقعة «الأرك» الشهيرة سنة ٥٩١هـ غير أن ذلك لم يغفر لهم ولم يزل تلك البقع المتسعة من الدماء، وبقى قانون ـ الله تعالى ـ عادلا، فقد تجرع الموحدون مرارة القتل على يد بعضهم بعض جزاء بما كانوا يصنعون.. وكانت نهايتهم البائسة في معركة «العقاب» حيث أبيدت فيها جيوش الموحدين، ومنذ ذلك الوقت وأركان هذه الدولة تتداعى حتى سنة ٦٦٨هـ.

دولة بني الأحمر (مملكة غرناطة) (٦٣٠ ـ ٨٩٧هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٤٩٢ م).

وقد تأسّست على يد ابن الأحمر سنة ١٢٢٨ م بعد معركة العقاب وسقوط دولة الموحدين استمرت مملكة غرناطة حتى عام

١٤٩٢م حين سقطت بيد فرناندو الثاني .

وكان أهل غرناطة قد استدعوا ابن الأحمر بعد وفاة ابن هود سنة ٦٣٥هـ ليجعلوه حاكمًا عليهم ، فدخلها في رمضان سنة ٦٣٥ هـ ، ومن يومها قامت مملكة غرناطة ، بعد عدة صدامات مع الأسبان اضطر ابن الأحمر لأن يهادنهم ويؤدي الجزية لهم مثل باقي زعماء الأندلس من أجل الحفاظ على مملكته .

أما ملوك هذه الدولة فجاءوا على النحو التالي :

١ ـ أبو عبد الله محمد الأول « الأحمر » بن يوسف بن نصر ١٢٣٢ـ ١٢٧٣

٢ ـ أبو عبد الله محمد الثاني «الفقيه» بن محمد ١٢٧٣ـ ١٣٠٢

٣ ـ أبو عبد الله محمد الثالث المخلوع بن محمد الثاني ١٣٠٢ـ ١٣٠٩

٤ ـ أبو الجيوش نصر بن محمد الثاني ١٣٠٩ـ ١٣١٤

٥ ـ أبو الوليد إسماعيل الأول بن فرج بن محمد الأول ١٣١٤ـ ١٣٢٥

٦ ـ محمد الرابع بن إسماعيل ١٣٢٥ـ ١٣٣٣

٧ - المؤيد بالله أبو الحجاج يوسف الأول النيار بن إسماعيل ١٣٣٢- ١٣٥٤

٨ - محمد الخامس الغنى بالله بن يوسف ١٣٥٤- ١٣٥٩

٩ - أبو الوليد إسماعيل الثاني بن يوسف ١٣٥٩- ١٣٥٩

١٠- أبو سعيد محمد السادس« الأحمر »بن إسماعيل ١٣٥٩- ١٣٦٢

١١- محمد الخامس الغنى بالله بن يوسف ١٣٦٢- ١٣٩١

١٢- أبو الحجاج يوسف الثاني بن محمد الخامس ١٣٩١- ١٣٩٢

١٣- محمد السابع المستعين بن يوسف الثاني ١٣٩٢- ١٤٠٨

١٤- أبو الحجاج يوسف الثالث الناصر بن يوسف الثاني ١٤٠٨- ١٤١٧

١٥- محمد الثامن المتمسك بن يوسف الثالث ١٤١٧- ١٤١٩

١٦- محمد التاسع الصغير بن نصر ١٤١٩- ١٤٢٧

١٧- محمد الثامن المتمسك بن يوسف الثالث ١٤٢٧- ١٤٢٩

١٨- محمد التاسع الصغير بن نصر ١٤٢٩- ١٤٣١

١٩ـ أبو الحجاج يوسف الرابع بن محمد السادس ١٤٣١ـ ١٤٣١

٢٠ـ محمد الثامن المتمسك بن يوسف الثالث ١٤٣١ـ ١٤٤٥

٢١ـ محمد العاشر الأحنف بن عثمان ١٤٤٥ـ ١٤٤٥

٢٢ـ يوسف الخامس ١٤٤٥ـ ١٤٤٦

٢٣ـ محمد العاشر الأحنف بن عثمان ١٤٤٦ـ ١٤٤٧

٢٤ـ يوسف الخامس ١٤٦٢ـ ١٤٦١

٢٥ـ أبو الحسن على بن سعد ١٤٦١ـ ١٤٨٢

٢٦ـ أبو عبد الله محمد الحادي عشر بن علي ١٤٨٢ـ ١٤٨٣

٢٧ـ أبو الحسن علي بن سعد ١٤٨٣ـ ١٤٨٥

٢٨ـ محمد الثاني عشر بن سعد الزغل ١٤٨٥ـ ١٤٩٠

٢٩ـ أبو عبد الله محمد الحادي عشر ابن علي ١٤٩٠ـ ١٤٩٢

قصة الفردوس المفقود

كانت السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري « الحادي عشر الميلادي » تحمل فى أحشائها وباءً خطيرًا إلى الأندلس الإسلامية .

لقد سقطت الدولة العامرية آخر حماية للدولة الأموية فى الأندلس ، ولقد ظهر أن أحفاد عبد الرحمن الداخل الأمويين أقل من أن يقوموا بعبء حماية الإسلام الأندلسي .

وكان البربر قد هاجر كثير منهم إلى الأندلس بحثًا عن سلطة أو زعامة ، وكان الصقالبة وهم مجموعة من النازحين إلى الأندلس من طوائف مسيحية مختلفة ، كان هؤلاء الصقالبة يشكلون بدورهم عنصرًا من عناصر الوجود فى الحياة الأسبانية الإسلامية .

ومن هذه القوميات المتناطحة تشكل الوجود الأندلسي غرة القرن الخامس الهجري . . فلما سقطت خلافة الأمويين الإسلامية فى الأندلس ، نتيجة امتصاص طاقتها فى مشاحنات داخلية . . تحركت كل هذه الطوائف المقيمة فوق أرض الأندلس الإسلامية تبحث عن السلطة والامتلاك .

وبدلًا من أن تتحد قواهم في وجه المسيحيين المجاورين لهم ، وبدلا من أن يرفعوا راية الإسلام والجهاد . . كأمل ينقذ أندلسهم من التحدي الصليبي المتربص بهم . . بدلًا من هذا . . أشعلوا أحقاد القومية الطائفية والنعرات الجنسية !!

وظهر فى الأندلس أكثر من عشرين دولة يتقاسمها الأندلسيون ، والبربر ، والعرب ، والصقالة . . ففي كل مدينة دولة ، بل ربما اقتسم المدينة أكثر من طامع ومنافس .

واستمر أمر هذه الدول أو هذه المدن المتنافسة التي عرف حكامها بملوك الطوائف . . استمر أمرها أكثر من خمسين سنة . . امتهن فيها الإسلام والمسلمون ، وتوسل كل ملك منهم بالنصارى ضد إخوانه المسلمين ، ووقف ابن حيان [1] ـ مؤرخ الأندلس ـ يستشف ما وراء الحجب ويقول لأبناء جنسه :

يا أهل أندلس شدوا رواحلكم

فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولًا من الوسط

(١) قيل إن صاحب هذه الأبيات هو ابن العسّال .

مـن جـاور الـشر لا يـأمن بوائقـه

كيف الحياة مع الحيات فى سفط

لقد فشل ملوك الطوائف فى أن يلموا شعثهم ، وأن يتكتلوا ضد النصارى . . ومن عجيب المقادير أم « الفونسو السادس » ملك قشتالة وليون واستوريا ، كان يتظاهر بحماية هؤلاء الملوك المسلمين ، ويأخذ منهم الجزية والأتاوات التى يرفع من قيمتها سنة بعد أخرى ، واستطاع أن يعد عدته من الأتاوات التي يفرضها عليهم ليلتهمهم بها كلهم . . وكان آخر ما التهمه الفونسو من أرض المسلمين تحت سمع وبصر هؤلاء الإسلاميين بل وبمساعدة بعضهم . . مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ١٠٨٥م .

وعند هذه الموقعة تأكد لدى أكبر ملك من ملوك الطوائف « المعتمد بن عباد » أن الفونسو يريد الالتهام ولا أقل من الالتهام الكامل . . وفكر المعتمد فى وسيلة الإنقاذ . . ووضعته الأقدار أمام حل واحد لم يكن له خيار فيه .

لقد قرر أن يستنجد بالمرابطين المسلمين الموجودين فى المغرب الأقصى كقوة إسلامية ناشئة .

وقد نجح المرابطون فى إيقاف الزحف النصراني ، وأذلوا كبرياء الفونسو ، واستردوا كثيرًا من مدن الإسلام ، ولم يحاول الأندلسيون بناء أنفسهم . . لم يحاولوا صنع التقدم من خلال الذات . . لقد اعتادوا تسول النصر واستيراد البقاء من إخوانهم المغاربة المسلمين .

وحقيقة . . نعم حقيقة . . بقيت الأندلس إسلامية باستيرادها النصر أيام المرابطين ، ثم أيام الموحدين ، ثم أيام بني مرين . . وبقيت مملكة غرناطة الإسلامية وحدها أكثر من مائتي سنة تصارع الموت ـ كوهجة الشمس قبل الغروب .

***

ولكن قانون الحضارة كان قد قال كلمته . . فإن الذين فشلوا في أن يخلقوا من أنفسهم قوة قادرة على الحياة ما كان ينفعهم أن يشتروا النصر أو يستوردوه .

وفي سنة (٨٩٧ هـ) ١٩٤٢م سقطت غرناطة آخر ممالك الإسلام في الأندلس ، وطرد المسلمون شر طردة .

وكانت هذه هي النهاية التي تنبأ بها الشاعر ابن حيان وغيره من

هؤلاء الذين أدركوا قانون البقاء الذي هو من سنة الله .

نعم : أدركوا أن التاريخ لا يقوم بالاستيراد ، ولا تنتصر حركة تقدمه بالمتسولين !

وقصة أخرى من الأندلس

كانت الحالة سيئة للغاية . . وعندما تصل حركة التاريخ إلى طريق مسدود بعد أن يفسق أهل القرى ويخلعوا طاعة الله . . في هذه الحال يكون لا أمل إلا في شيء واحد . . هو الزوال . . وهذه هي المعادلة الوحيدة الصحيحة في تفسير التاريخ خروج على قوانين الله . . إمهال نسبي من الله قد يغري الخارجين على القانون بالتمادي . . تجمع لعوامل الفناء ، إغلاق لباب العودة . إبادة وموت في شكل مجموعة من الكوارث!!

وإلى الحالتين الأخيرة وما قبلها . . وصلت حال الأندلس فى القرن السابع الهجري . . ذلك القرن الذي شهد سقوط معظم القلاع والمدن الإسلامية الأندلسية ، ولم تفلت منه - إلى حين - سوى مملكة غرناطة ، التي لم تلبث بعد قرنين - أن لقيت حتفها .

وعلى امتداد الأندلس - شرقية وغربية - بدأت حركة ما يسمى بالاسترداد الصليبي تسوق المسلمين المفككين ، المتناطحين بالألفاظ ، المقسمين في ولائهم بين ملوك النصارى . . تسوقهم إلى حتفهم الأخير .

وبعد سقوط الموحدين في الأندلس ، انفرط عقد هؤلاء ، فلم يعد يجمعهم جامع من خلافة إسلامية جامعة ، أو من استجابة لتحدٍ خارجي ، أو من عقيدة متفوقة تشتعل أعماقهم بها ، ويبحثون عن رفعها أكثر مما يبحثون عن رفعة أنفسهم . . ولذا . . فقد تبع سقوط الموحدين التمهيد لسقوط كثير مدن الأندلس كمرسية ، وبلنسية ، وقرطبة ، والشرق الأندلسي . . ثم الغرب الأندلسي الذي كانت عاصمته إشبيلية !!

لقد عرف أهل إشبيلية بعد سقوط الموحدين ، أنهم لا بد لهم من حماية خارجية بعد أن فشلوا فى الاعتماد على الذات . . وقد أرسلوا بيعتهم إلى الأمير أبى زكريا الحفصي أمير الحفصيين فى تونس هؤلاء الذين لمعوا بعد سقوط الموحدين ، لكن الرجال الذين أرسلهم الأمير الحفصي إلى إشبيلية أساؤوا معاملة الناس وأظهروا الفساد . . فاضطر أهل إشبيلية لإخراجهم ، وبدؤوا فى الاعتماد على أنفسهم ، وألغوا معاهدة ذليلة كانت قد عقدت بينهم وبين ملك قشتالة النصراني فرناندو الثالث ، وقتلوا « ابن الجد » صاحب مشروع المعاهدة المذكورة ، ونصير السياسة المستذلة للنصارى .

وكان هذا نذيرًا ببداية النهاية لإشبيلية ، إذ أنهم قد فقدوا العون الإسلامي الخارجي . . وأعلنوا ـ بقطعهم المعاهدة ـ حربًا على قشتالة ، لم تكن ظروفهم مهيأة لدخولها .

وقد شهدت سنة ٦٤٤هـ بداية التحرك النصراني ضد إشبيلية ، واستولى الصليبيون على حامية إشبيلية فى هذا العام . . وكان ذلك بمساعدة ابن الأحمر ملك غرناطة وفقًا لمعاهدته مع فرنا ندو . .!

وفى العام التالي تقدمت الجيوش النصرانية مرة أخرى إلى إشبيلية ، وقد نجحت في الاستيلاء على عشرات من المدن الإسلامية بفضل تدخل ابن الأحمر ، ومنعه هذه المدن من القتال بحجة أن القتال عبث . .!!!

وتم حصار إشبيلية وتطويقها من جميع الجهات بالكتائب النصرانية . وبالكتيبة التي يقودها ابن الأحمر المسلم ، مشتركين جميعًا ـ باسم وحدة الطبقة العاملة فيما نظن !! ـ في تشريد أهلها ، وسحق دعوة الإسلام بها . . ولعل وجود راية محاربة إسلامية يلمحها المسلمون المحاصرون . . كان أشدّ ضربة تلقّاها بعيون وقلوب باكية أهل إشبيلية المستبسلون !!

لقد وقف أهل إشبيلية المسلمون الشرفاء نحوًا من سنة يدافعون الحصار النصراني المدعوم من ابن الأحمر . . وقد نجحوا فى إيقاع النصارى في أكثر من كمين وأصابوهم بالهزيمة غير مرة .

وقد حاولوا - وهم في حصارهم ، الاستنجاد بالمغرب دون جدوى . . بينما توالت النجدات على النصارى ، حتى نجحوا بسببها فى منع المؤن عن المسلمين المحاصرين في إشبيلية . . فنفدت الأقوات وبدأ شبح الجوع يدب في أوصال المدينة المجهدة . . .!!

وكان قضاء الله . . وخرج المسلمون الأشبيليون من مدينتهم وفق شروط المعاهدة . . خرجوا نازحين إلى مدن إسلامية أسبانية أخرى لم تلبث أن أسقطت !!

***

لو كان هؤلاء المسلمون في مئات المدن التي استلمت دون قتال بواسطة ابن الأحمر ، أو خوفا من الموت . . لو كانوا قد اتحدوا وقاتلوا . . أو لو أنهم قاتلوا تحت أي ظرف . .أكانت النتيجة ستصبح شرًّا من هذا الحال الذي لقيه المسلمون في الأندلس ؟

لكنها سنة الله في حركة التاريخ . . فعندما يتم الخروج على

قوانين الله تتجمع عوامل الفناء فيغلق باب العودة . . فتتحقق الإبادة . . ويتحقق الموت في شكل مجموعة من الكوارث . . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا !!

ركن من الفردوس يسقط

حين تذهب إلى التاريخ تتلقى منه تلقى التلميذ المتعلم ، وليس تلقى التلميذ المتحجر المكابر ، يروعك أنك تقرأ نفسك ومجتمعك وأحداث عصرك فى بعض صفحاته ، وتكاد تحس بأن ما يدور حولك ليس إلا آخر طبعة من كتاب التاريخ ، وأن الذين يظنون أنفسهم آخر حلقات التاريخ - أي أفضلها - أو يظنون أنفسهم خارج دائرة التاريخ . . هؤلاء وأولئك قوم مخدوعون ، يمتازون بالغباء الشديد والسذاجة المفرطة .

إن قصة خروجنا من الأندلس لم تكن قصة عدوّ قوي انتصر علينا بقدر ما كانت قصة هزيمتنا أمام أنفسنا . . قصة ضياعنا وأكلنا بعضنا بعضا كما تأكل الحيوانات المنقرضة بعضها بعضًا .

وكان سقوط (قرطبة) أكبر معاقل الإسلام في الأندلس سنة ٦٣٣هـ بداية النهاية لسقوطنا التام في الأندلس .

وقد اضطر ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة إلى أن يهادن ملك قشتالة الصليبي ، وأن يعقد معه صلحًا لمدة عشرين سنة ، وأن يسلم له - بناء على شروط الصلح - مدينة جيان وما يلحق بها من

الحصون والمعاقل ، وأن ينزل عن أرجونة ، وبيغ الحجار ، وقلعة جابر ، وأرض الفرنتيرة . . واعترف بالطاعة لملك قشتالة وتعهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف مرافيدي (العملة الأسبانية) ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه (المسلمين) ! وعندما استغل ملك قشتالة هذا الصلح ليتفرغ لضرب المسلمين الآخرين ، هاجم مدينة إشبيلية قاعدة غربي الأندلس كله . . وكانت هناك كتيبة إسلامية أرسلها ابن الأحمر تهاجمها معه (باسم التقدمية !!) فسرعان ما سقطت إشبيلية الإسلامية حاضرة الثقافة الإسلامية الرفيعة ـ بيد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ٦٤٦هـ وبمعونة ابن الأحمر ـ مؤسس مملكة غرناطة العظيم ، ولم تعد إشبيلية إلى الإسلام منذ ذلك اليوم !!

وعندما كان أمد الصلح بين ابن الأحمر وبين ملوك قشتالة ينتهي بعد (العشرين سنة) سعى ابن الأحمر لتجديد الصلح . . وفى سبيل ذلك تنازل لقشتالة عن عدد كبير من بلاد الإسلام قيل : إنها بلغت أكثر من مائة بلد وحصن !

وأنا لا ألوم ابن الأحمر وحده . . إنما ألوم ملوك الطوائف جميعًا . . لقد كان كل شيء ممكنا بالنسبة لهم ـ وفى عرفهم ـ عدا

شيئًا واحدًا . .

***

كان الترامي في أحضان العدوّ ممكنًا . . وكان التنازل له عن الأرض ممكنًا ، وكان الصلح المهين ودفع الجزية للعدوّ ممكنًا . . وكان الخلاف بين بعضهم وبعض لدرجة الاستنجاد بالعدو ممكنا أجل . . كان كل هذا ممكنا إلا شيئًا واحدًا . . إلا العودة إلى الإسلام الصحيح الخالي من حبّ السلطة واستعباد الدنيا . . والأمر بالاعتصام بحبل الله وحده وعدم التفرقة . .

كل شيء كان ممكنا ـ في عرفهم ـ إلا هذا .

وبالطبع . . فإن لنا أن نتوقع ظهور كثيرًا من الحركات التقدمية ، والقومية ، والجدلية فى مثل هذا المناخ الفاسد . . وبالتأكيد لولا بروز مثل هذه النزعات التي لا شك في أن النصارى قد ساعدوا على ترويجها ، لولا هذا لأصبح المكان خاليًا وملائمًا لبروز الحل الوحيد الصحيح . . الحل الإسلامي .

وفى الشرق الأندلسي كان شيء من هذا يحدث على نحو أعتى وأقسى ، ففي « بلنسية » . . كان آخر أمراء الموحدين هناك

« أبو زيد بن أبي عبد الله » يلجأ بعد انهيار ملكه في بلنسية تحت ضربات منافسه « أبي جميل زيان » . . وكان هذا الموحدي العاق الجاحد يشهد مع ملك أرجوان كل غزواته ضدّ المسلمين . . ولم يكتف بهذا المصير التعس . . فاتخذ قراره الثوري الحاسم « باعتناق النصرانية » . . !!

وبينما كانت مدن بلنسية الكبرى وقراها وحصونها تتداعى ما بين سنوات (٦٣١ ـ ٦٣٦ هـ) كان (أبو زيد) يبذل جهوده مع النصارى في حروبهم ضدّ الإسلام . . ويعاونهم في التعرف على نقاط الضعف لدى أبناء دينه السابق ، وفي الوقت نفسه كان ابن الأحمر يساعد ملك قشتالة بكتائبه ضدّ إخوانه المسلمين .

***

وتسألني :

لماذا طُرِدْنَا من الأندلس ؟ فأقول لك : لأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون . .

ثم أقول لك عبرة التاريخ . . قانون سقوطنا :

« حين يبحث كل عضو مِنَّا عن نفسه تسقط سائر الأعضاء » .

سقوط غرناطة

كان بقاء مملكة غرناطة الإسلامية في الأندلس قرنين من الزمان معجزة من معجزات الإسلام .

فهذه الجزيرة الإسلامية العائمة فوق بحر الصليبية المتلاطم الأمواج والطافح بالحقد والمكر التاريخيين . . هذه الجزيرة ما كان لها أن تصمد صمودها المشهور إلا لأن طبيعة الصمود كامنة فى العقيدة والمبادئ الإسلامية .

وبدون العقيدة الإسلامية . . ما كان لهذه الجزيرة أن تصمد وحدها في الأندلس بعد أن سقطت كل المدن والقلاع الإسلامية منذ قرنين من الزمان .

كان قانون « الاستجابة للتحدي » هو الذي أبقى غرناطة حَيَّة زاخرة بالفكر الإسلامي والرقي الحضاري هذين القرنين . . وكان شعور الغرناطيين بأنهم أمام عدوّ محيط بهم من كل جانب ، ينتظر الفرصة لالتهامهم ، وبأنه لا أمل لهم في استيراد النصر من العالم الإسلامي ، وبأنه لا بد لهم من الاعتماد على أنفسهم . . كان هذا

الشعور باعثهم الأكبر على الاستعداد الدائم، ورفع راية الجهاد والتمسك بإسلامهم.

وبهذا نجحت غرناطة فى أن تظل إلى سنة ١٤٩٢م (٨٩٧ هـ) سيدة الأندلس الإسلامي، ومنارة العلوم، وشعلة الحضارة الإسلامية الباقية في أوربا.

لكن الأعوام القريبة من عام السقوط شهدت تطورًا في الحياة الأندلسية.. فعلى المستوى النصراني بدأ « اتحاد » كبير يضم أكبر مملكتين مسيحيتين مناوئتين للإسلام.. وهما مملكتا أرجوان وقشتالة، وقد اندمج الاثنان في اتحاد توجاه بزواج « إيزابيلا » ملكة قشتالة من « فرناند » ملك أرجوان.. وكان الحلم الذي يراوض الزوجين الملكين الكاثوليكيين ليلة زفافهما هو دخول غرناطة.. وقضاء شهر عسلهما في الحمراء، ورفع الصليب فوق برج الحراسة في غرناطة ـ أكبر أبراجها ـ وعلى المستوى الإسلامي.. كان « خلاف » كبير قد دَبَّ داخل مملكة غرناطة ولا سيما بين أبناء الأسرة الحاكمة، وتم تقسيم مملكة غرناطة المحدودة قسمين، يهدد كل قسم منهما الآخر ويقف له بالمرصاد.. قسم في العاصمة الكبيرة (غرناطة) يحكمة أبو عبد الله محمد على أبو الحسن النصري

(آخر ملوك غرناطة) ، وقسم في (وادي آش) وأعمالها يحكمه عمه أبو عبد الله محمد المعروف بالزغل .

وقد بدأ الملكان الكاثوليكيان هجومهما على (وادي آش) سنة ٨٩٤ هـ ، ونجحا في الاستيلاء على وادي آش ، والمرية ، وبسطة . . وغيرها ، بحيث أصبحا على مشارف مدينة غرناطة .

وقد أرسلا إلى السلطان أبي عبد الله النصري يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء الزاهرة ، وأن يبقى هو حيًّا في غرناطة تحت حمايتهما ، وكما هي العادة في الملوك الذين يركبهم التاريخ وهو يدور إحدى دوراته ، كان هذا الملك ضعيفاً . . لم يحسب حساباً لذلك اليوم . . ولقد عرف أن هذا الطلب إنما يعني الاستسلام بالنسبة لآخر ممالك الإسلام في الأندلس ، فرفض الطلب ودارت الحرب بين المسلمين والنصارى واستمرت مدة عامين . . يقودها ويشعل الحمية في نفوس المقاتلين فيها فارس إسلامي من هؤلاء الذين يظهرون كلمعة الشمس قبل الغروب « موسى ابن أبي الغسان »

وبفضل هذا الفارس وأمثالة وقفت غرناطة في وجه الملكين الكاثوليكيين عامين وتحملت حصارهما سبعة أشهر .

لكن مع ذلك . . لم يكن ثمة شك في نهاية الصراع . . فأبو عبد الله الذي لم يحفظ ملكة حفظ الرجال ، والانقسام العائلي ، والخلاف الداخلي في المملكة في مقابل اتحاد تام في الجبهة المسيحية . . . مضافاً إلى ذلك حصاد تاريخ طويل من الضياع ، والقومية الجاهلية ، والصراع بعيداً عن الإسلام . . عاشته غرناطة وورثته مما ورثته عن الممالك الإسلامية الأسبانية الساقطة .

كل هذه العوامل قد عملت على إطفاء آخر شمعة إسلامية في الأندلس .

وعندما كان أبو عبد الله (آخر ملوك غرناطة هذا) يركب سفينته مقلعاً عن غرناطة الإسلامية ، مودعاً آخر أرض تنفست في مناخ إسلامي في أوروبا بعد ثمانية قرون عاشتها في ظلام الإسلام . . .

في هذا الموقف الدرامي العنيف . . بكى أبو عبد الله ملكه [1] وملك الإسلام المضاع ، وتلقى من أمه الكلمات التي حفظها

(١) ليقارن القارئ هنا بكاء طاغية مصر جمال عبد الناصر بعد أن جلب على العالم العربي مصائب تحتاج لقرنين كي تزول آثارها ، وهكذا كل أعداء الإسلام لا يجلبون لأمتهم إلا التعاسة !!

التاريخ : (إبك مثل النساء مُلْكاً لم تحفظه حفظ الرجال) .

والحق أن أمه بكلمتها تلك ، إنما كانت تلطمه وتلطم حكامًا في الإسلام كثيرين . . بكوا مثل النساء ملكاً لم يحفظوه حفظ الرجال !!!

قضية إحراق طارق للسفن

لم تحظ قضية من قضايا التاريخ الإسلامي الأندلسي باهتمام المؤرخين واختلافهم ، وجنوح بعضهم - في ثقة واطمئنان - إلى ألرأي المثبت ، وجنوح آخرين - في ثقة مماثلة - إلى الرأي المنفي ، مثلما حظيت قضية إحراق طارق بن زياد للسفن ، التي عبر عليها جنود إبان فتحه أسبانيا (رجب - رمضان ٩٢هـ / يونيو - يولية ٧١١م) .

فبعض المؤرخين الذين ينتمون إلى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة يتجاهلون قصة إحراق طارق للسفن ، ويتحدثون عن الفتح دون أدنى إشارة إليها - على ما سنفصله فيما بعد - وكأنها شيء لا أصل له ، وبعضهم في المقابل يتناولون قصة (إحراق طارق للسفن) وكأنها حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى الوقوف عندها ولا إلى ذكر أدلة على وقوعها ، وبالتالي فهم يعرضونها بطريقة تقريرية ، ويعتبرونها مفخرة من مفاخر الفتوحات الإسلامية ، وعملا بطوليًا شجاعا يدل على روح الفداء والاستشهاد التي عرف المسلمون بها والعرب في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى !

ولقد ذاع الرأي (المثبت) لقصة إحراق السفن ، وشق طريقه في الفكر التاريخي ، وكأنه حقيقة مسلم بها ، مع أنه لم يظهر إلا بعد مرور أربعة قرون ونصف القرن من تاريخ الفتح الإسلامي لأسبانيا ، إذ لم يشر على قصة إحراق السفن هذه أحد من المؤرخين القدماء ، سواء من المدرسة التاريخية المصرية التي أرخت للأندلس حلال القرن الثالث الهجري وهي مدرسة ابن عبد الحكم المؤرخ المصري ، صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس [١] » وعبد الملك بن حبيب الذي عاش في مصر وإن كان أندلسي الأصل ، وصاحب كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب [٢] - أم من المدرسة التاريخية الأندلسية التي ظهرت في القرن الرابع ، وهي مدرسة أبى بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) وصاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » - وسوف نورد ما ذكره في قصة الفتح بشيء من التفصيل - ومعاصره (المجهول) في القرن الرابع صاحب كتاب : « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها [٣] » - وسوف نورد ما

(١) نشره المستشرق تشارلز توري ، وأخيرًا حققه في مصر الأستاذ عبد المنعم عامر.
(٢) توفي ابن حبيب سنة ٢٣٨ هـ .
(٣) نشره عدد من المستشرقين ، ثم حققه إبراهيم الإبياري .

ذكره كذلك لكونه مرجعا أساسيًّا في تلك الفترة ـ ولم ترد عند آل الرازي ـ أحمد بن محمد بن عيسى ابنه ـ وابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) صاحب « تاريخ علماء الأندلس » والخشني صاحب كتاب « قضاة قرطبة » .

فكل مؤرخي القرن الرابع هؤلاء لم يظهر أثر للقصة في كتاباتهم !!

وحتى مع ظهور المدرسة التاريخية المغربية والأندلسية المتألقة في القرن الخامس الهجري ، تلك التي قدمت لنا عددًا كبيرًا من أعلام المؤرخين الأندلسيين من أمثال شيخ مؤرخي الأندلس أبي مروان ابن حيان القرطبي صاحب « المقتبس »[١] و « المتين »[٢] وابن حزم الأندلسي صاحب « نقط العروس » و « طوق الحمامة » و « جمهرة أنساب العرب » و « كتاب الفصل » وعدد كبير من الرسائل ، وكلها مطبوعة موجودة ، والحميدي صاحب « جذوة المقتبس » وصاعد صاحب « طبقات الأمم » والطرطوشي صاحب « سراج الملوك » ، والرفيق القيرواني صاحب « تاريخ إفريقية والمغرب» ، وغيرهم .

---

(١) حقق قطعا منه الدكتور محمود علي مكي والدكتور عبد الرحمن الحجي .

(٢) توجد نصوص كثيرة منه في الذخيرة ، وقد جمعها الدكتور عبد الله جمال الدين في أطروحته للدكتوراه بمدريد .

حتى مع ظهور هذه المدرسة المغربية والأندلسية المتميزة والمستوعبة ، فإنه لم يظهر في تراثها أثر لقصة إحراق السفن التي نسبت لطارق بن زياد في فتحه للأندلس .

ومن الجدير بالذكر أن مصادر القرن السادس للهجرة ـ المعاصرة للإدريسي وابن الكردبوس القائلين بقصة الإحراق ـ لم تورد هذه القصة أيضًا ـ فلم تظهر القصة عن ابن بسام الشنتريني صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ولا عند ابن بشكوال صاحب « الفهرست » .

كما أن القصة لم تظهر عند لاحقيهم من مؤرخي القرن السابع ، فليس لها أثر في موسوعة ابن عاذاري المراكشي « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، و « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي ، و « الذيل والتكملة » لمحمد بن عبد الملك المراكشي ، و « التكملة والحلة السيراء » لابن الأبار ، ومحمد بن على الشباط المصري التوزي صاحب « صلة السمط وسمة المرط » .

وهي لم تظهر كذلك عند مؤرخي القرن الثامن الهجري وعلى رأسهم علامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون ، ولسان الدين بن

الخطيب [١]. فهل يمكن أن يتجاهل جميع هؤلاء المؤرخين المغاربة الأندلسيين ـ خلال هذه القرون ـ قصة هذا شأنها في تاريخهم؟؟

فتح طارق للأندلس في أقدم المصادر الأندلسية:

ذكرنا أننا سنقف وقفة متأنية عند مصدرين أساسيين في تاريخ افتتاح الأندلس ، وهما تاريخ ابن القوطية ، وتاريخ أخبار مجموعة ، فهما من أهم المصادر وأوثقها وأحراها بإيراد القصة ولو

---

(١) لم نذكر – خشية الإطالة – النصوص التي أوردها هؤلاء في تراثهم عن فتح الأندلس ، فضلًا عن أن هذا لا يقتضيه المنهج العلمي ، علمًا بأننا رجعنا إلى كل هذا المصادر نلتمس فيها ما يدل على قصة الإحراق أو يقترب من الدلالة عليها فلم نجد لذلك أثرًا .

انظر على سبيل المثال ما كتبه هؤلاء عن فتح الأندلس في : جذوة المقتبس للحميدي : ص٣٢ ، ٣٣ نشر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصر واللبناني الطبعة ٢م ١٩٨٣ ، وتاريخ إفريقية والمغرب : للرقيق القيرواني تحقيق المنجى الكعبي نشر رفيق السقطي تونس ١٩٦٨ صفحات٧٤ وما بعدها ؛ وانظر صلة السمط : لابن شباط : ص١٣٧ وما بعدها بتحقيق أحمد مختار العبادي مدريد١٩٧١ ، وفتح المسلمين للأندلس لمؤلف مجهول بتحقيق حسين مؤنس مجلة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٤ ، والعبر : لابن خلدون ٤/ ١١٧ وما بعدها ، الطبعة الرابعة المصورة ، دار الكتب العلمية ١٩٧٩ . وحتى المصادر المشرقية رجعنا إليها فلم نجد لها أثرًا . وتاريخ الرسل والملوك للطبري ٨ / ٨٢ وما بعدها مصورة من مطبعة الحسين بمصر نشر دار الفكر بيروت ، والكامل : لابن الأثير :٤/ ٤/ ٥٦٢ وما بعدها ، طبع دار صادر بيروت١٩٦٥ ، وأخبار الزمان للمسعودي : ص٩٦ ، نشر مكتبة الأندلس ، بيروت .

كان لها أصل في التاريخ .

ولقد تتبعنا الكتاب الأول منها ، فلم نجد أي أثر لقصة حرق السفن في كتاب القوطية ، مع أنه كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس » من أقدم المصادر وأهمها في تاريخ فتح الأندلس ، وما ذكره ابن القوطية حول (الفتح الإسلامي للأندلس) يتلخص في النصوص التالية :

قال ابن القوطية :

فلما دخل طارق بن زياد الأندلس ، أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة ، وقد ترعرعوا وركبوا الخيل ، يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ، وحشدوا الشر ، وقدموا ونزلوا شقندة وما يطمئنون إلى لذريق بدخول قرطبة ، فخرج إليهم ثم نهض للقاء طارق ، فلما تقابلت الفئتان أجمع (المند) وأخواه على الغدر بلذريق وأرسلوا في ليلتهم تلك إلى طارق يعلمونه أن لذريق إنما كان كلبًا من كلاب أبيهم وأتباعه ويسألونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح ، وأن يمضي لهم ضياع أبيهم بالأندلس وكانت ثلاثة آلاف ضيعة سميث بذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا انحازوا بمن معهم إلى طارق فكانوا سبب الفتح [1] . وكان دخول طارق الأندلس في رمضان سنة

(١) ص٢٩ ، ٣٠ بتحقيق إبراهيم الإبيارى ، نشر دار الكتب الإسلامية ، بيروت والقاهرة .

اثنتين وتسعين[١] .

فلما جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكورة الجزيرة فأمر أصحابه بتقطيع من قتلوه من الأسراء ، وطبخ لحومهم بالقدور وعهد بإطلاق من بقي من الأسراء ، وأخبر المنطلقون بذلك كل من لقوة فملأ الله قلوبهم رعبًا[٢] .

ثم تقدم فلقى لذريق (. . .) ثم تقدم إلى استجة وإلى قرطبة ، ثم إلى طليطلة ، ثم إلى الفج المعروف بفج طارق الذي منه دخل جليقية ، فخرج جليقية حتى انتهى إلى استرقة[٣] .

وهكذا لم يرد أي ذكر ـ ولا أدنى إشارة ـ حول قصة إحراق السفن لدى ابن القوطية الذي يعتبر مصدرًا من المصادر الأساسية في فتح الأندلس ، وإن كان هذا النصر يفيدنا شيئًا قريبًا من قصة الإحراق فهو يدلنا على أسلوب طارق الحربي ؛ إذ أنه كان يؤمن

---

(١) المصدر السابق : ص٣٣ .

(٢) السابق : ص٣٥ وهو إبهام مقصود يمكن أن يكون حرق السفن من نوعه وهو ما سنحلله ونقف عنده في ختام البحث .

(٣) تاريخ فتح الأندلس : لابن القوطية : ٣٥ .

بأسلوب التمويه وحرب الأعصاب .

أما صاحب « أخبار مجموعة » ـ الذي يعتبر أيضا من أوثق المصادر في تاريخ الفتح الإسلامي للأندلس ، والمنسوب إلى القرن الرابع الهجري ـ فهو من هؤلاء الذين لم يوردوا أي ذكر لحادثة إحراق السفن هذه ، على الرغم من أن « أخبار مجموعة » من أقدم الكتب ـ بعد جيل ابن عبد الحكم وابن حبيب ـ في التأريخ لفتح الأندلس . . وقصة الفتح عند صاحب أخبار مجموعة ترد على النحو التالي[1] :

فبعث رجلا من مواليه ـ أي موسى بن نصير ـ يقال له : طريف ، ويكنى بأبي زرعة ، في أربعمائة ، ومعهم مائة فرس ، فسار في أربعة مراكب ، حتى نزل بمراكبه جزيرة ، يقال لها : جزيرة الأندلس ، التي هي معبر مراكبهم ودار صناعاتهم ، ويقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لنزوله فيها .

فلما رأي ذلك تسرعوا إلى الدخول ، فدعا موسى مولى له ، كان

---

(١) أخبار ممنوعة لمؤلف مجهول (أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم) تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ .

على مقدماته ، يقال له : طارق بن زياد ، فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالى ، ليس فيهم عرب إلا قليل فدخل في تلك الأربع السفن ، لا صناعة لهم غيرها ، وذلك في سنة اثنتين وتسعين .

فاختلف السفن بالرجال والخيل ، وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع ، فنذله ، والمراكب تختلف حتى توافي جميع أصحابه .

وكان موسى منذ وجه طارق أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافي المسلمون بالأندلس ، عند طارق اثنا عشر ألفا ، وقد أصابوا سبيًا كثيرا ورقيقا ، ومعهم « يليان » في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ، ويتحسس لهم الأخبار ، فأقبل إليهم لذريق وطارق ، وهو بالجزيرة ، بموضع يقال : البحيرة ، فتقاتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت الميمنة والميسرة ، انهزم بهم « شبشرت وأبة » ابنا غيطشة ، ثم قابل القلب شيئًا من قتال ، ثم انهزم لذريق ، واذرع فيهم المسلمون بالقتل ، وغاب لذريق فلم يدر أين وقع [1].

---

(١) ص١٦-١٨ .

وهكذا ينتهي نص أخبار مجموعة دون أن نستفيد شيئًا يتصل بقصة الإحراق ، إلا أننا نستفيد من انهزام الميمنة والميسرة بقيادة ابني غيطشة بعدًا آخر يؤكد أسلوب طارق الحربي في استعمال العقل والحيلة وحرب الأعصاب ما وجد إلى ذلك سبيلا .

إن هذين المصدرين ـ تاريخ ابن القوطية وأخبار مجموعة ـ هما أقدم المصادر التي بين أيدينا ، وهما يتميزان على المصادر السابقة والتي تعرف منها : « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لابن عبد الحكم و « مبتدأ خلق الدنيا » لابن حبيب ـ بأنهما مصدران ينتميان إلى المدرسة الأندلسية ، بل هما الاستهلال للكتابة التاريخية الأندلسية ، بينما كان ابن عبد الحكم وابن حبيب ينتميان إلى المدرسة المصرية التي سبقت في كتابة تاريخ الأندلس .

وبالإضافة إلى هذا فإن هذين المصدرين موضع ثقة من المؤرخين على الرغم مما عرف عن ابن القوطية من نزعة شيوعية تميل إلى الأندلسيين . . بينما يصف الدكتور العبادي ابن الكردبوس ـ محقق الجزء الأندلسي من الاكتفاء لابن الكردبوس ـ بأنه (لم يذكر للأسف المصادر التي استقى منها معلوماته والتي اعتمد عليها في

كتابه)[١] .

ويصف ـ أيضا ـ بأنه مولع بالغرائب والعجائب التي لا تحتمل التصديق[٢]، وليس متكلفا أن نقول : إن نزعة الغرائب والعجائب هذه كانت ـ بالطبع ـ موجودة بدرجة ما في معاصر ابن الكردبوس وشريكه في إيران رواية إحراق السفن (الإدريسي) ـ على الأقل ـ اعتمادا على وجود هذا الجانب في الأدب الجغرافي وأدب الرحلات بصفة عامة !!

ظهور رواية إحراق السفن :

ليس من المعقول ـ كما يقول الدكتور محمود مكي [٣] ـ أن يخفي هذا الخبر الهام على كل المؤرخين ، فلا يعرفه إلا الإدريسى أبو عبد الله محمد ، الذي توفي سنة ٥٦٠هـ ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » سنة ٥٤٨هـ ، ومعاصر ، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس الذي لم تعرف سنة وفاته ، على خلال في أيهما سبق الآخر وأخذ عنه [٤]،

---

(١) تاريخ الأندلس : لابن كردبوس :ص١١ ، طبع معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ ، مقدمة العبادي .

(٢) المصدر السابق (مقدمة العبادي) :ص٣٥ .

(٣) مرجع سابق .

(٤) يذهب الدكتور محمود مكي إلى سبق الإدريسي ، ويذهب الدكتور أحمد العبادي على سبق ابن الكردبوس . راجع المقالة السابقة لمكي ، وفي تاريخ المغرب والأندلس للعبادي :ص٦٣وما بعدها .

وهو خلاف لا طائل وراءه فهما متعاصران ، وإن كنا نميل إلى سبق الإدريسى ؛ لأنه أكثر تفصيلا ، وعنه أخذ الحميري محمد بن عبد الله صاحب « الروض المعطار » ، وهو الثالث الذي تبعهما في تزديد هذه الرواية ، كما أن من المرجح أن يكون ابن الكردبوس قد توفي في نهاية القرن السادس الهجري ، ويكون ثمة احتمال بسبق الإدريسي عنه في الزمان حتى وإن تعاصرا [١].

يقول الإدريسي : (لما جاز طارق بمن معه من البرابر وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التي جاز عليها فتبرأ بذلك عما اتهم به) [٢] وعن الإدريسي ـ كما سنرى ـ أخذ الحميري . . فأورد في « الروض المعطار » قوله :

(وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا ينزلونه فأراد أن ينفي عن نفسه التهمه فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها فتبرأ بذلك مما اتهم به) [٣].

---

(١) مقدمة تحقيق أحمد العبادى لنص ابن الكردبوس ، مدريد ١٩٧١ ، ص٧ .

(٢) نزهة المشتاق : ٢ / ١٧٧ ليدن ، بتحقيق دوزي .

(٣) الروض المعطار : ص٧٥ (جزء مستل منه) .

والتشابه بين النصين واضح لا يحتاج إلى تعليق ، أما ابن الكردبوس فقد جاءت عبارته مقتضبة في كتابه « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » وذلك عندما عقب على المعركة التي خاضها المسلمون بقيادة طارق في فتح الأندلس : (معركة شذونة أو وادى لكة أو وادي البيرباط) بقوله :

(ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا)[١] .

وتعتبر هذه النصوص الثلاثة التي وردت عن الشريف الإدريسي والحميري ـ الناقل عن الإدريسي ـ وابن الكردبوس ، هي الأصل الذي اعتمدت عليه كل المصادر التاريخية والأدبية التي أشارت إلى قصة الإحراق .

ولا أثر للقصة ـ كما يثبت رصدنا هذا الذي حاولنا أن يصل إلى درجة الحصر ـ في بقية المصادر الأندلسية الأصلية ، سواء تلك التي سبقت هذه المصادر أو التي عاصرتها في القرن السادس أو التي لحقتها حتى نهاية القرن الثامن الهجري ـ كما ذكرنا سابقًا .

---

(١) تاريخ الأندلس : لابن الكردبوس : ص٤٦ ، ٤٧ ، ووصفه لابن الشباط نصان جديدان ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العابدي .

إحراق السفن . . والأسطورة

ربط بعض المفكرين بين قصة إحراق طارق بن زياد للسفن وبين عدد من الأساطير القريبة من القصة والتي شاعت هي الأخرى في التاريخ ونالت حظًّا كبيرًا من الاهتمام ومن إضفاء العناصر الخيالية والأسطورية عليها .

وقد عقد الدكتور محمود على مكي [١] مقارنة ضافية بين عدد من الأساطير تدور كلها حول إحراق القادة منهم لسفنهم ووضعهم جيوشهم أمام مأزق (النصر أو الموت) وذلك خلال بحث يحمل العنوان نفسه « أسطورة إحراق السفن في التاريخ » [٢] .

وهكذا ـ ابتداء ـ جعل الدكتور مكي من قصة إحراق طارق للسفن واحدة من الأساطير التي شاعت في التاريخ ، وعالجها في سياق عدد من الأساطير الشرقية والغربية ـ التي عرفت حول هذا الأمر .

---

(١) أحد المهتمين القلائل بالأدب الأندلسي والتاريخ الأندلسي ، ومحقق لقطع من المقتبس لابن حيان ، ووكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقًا ، وصاحب مؤلفات عدة .

(٢) انظر الكتاب التذكارى لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الكويت ١٩٧٦ / ١٩٧٧ .

ولقد ساق الدكتور مكي من الأساطير الشرقية أسطورة إحراق القائد وهرز الفارسي لمراكبه حين ساعد سيف بن ذي يزن في تحرير اليمن والانتصار على الأحباش . وما سبق ذلك من إلقاء وهرز خطبة عصماء في جنوده على النحو الذي سيذكره بعض المؤرخين فيما بعد في فتح الأندلس . .

ويرى الدكتور مكي أن أسطورة حرق وهرز لمراكبه ، وأسطورة الخطبة المرتبطة بالإحراق ، يعتبر نواة لهذه الأسطورة التي تعرض علينا مثلا من أمثلة الفداء والتضحية سيصبح منذ ذلك الوقت خبرًا محببًا لدى رواة قصص الحملات البحرية حيث يكون عدد الفاتحين أقل بكثير من عدد الجنود الذين يقومون بالدفاع عن الأرض المفتوحة [١] .

وانتقالا من أرض اليمن ، إلى أرض الأندلس ، وعبورا بالحقائق التاريخية المسلم بها في فتح الأندلس حتى انتهى أمر معركة الفتح ـ معركة شذونة ـ بهزيمة ساحقة للقوط ونصر عظيم للمسلمين في الثامن والعشرين من رمضان سنة٩٢هـ ، مع وجود فارق شاسع بين الجيشين المتحاربين ـ جيش القوط الذي تقدره

---

(١) الدراسة السابقة الكتاب التذكاري لجامعة الكويت ١٩٧٦ م .

بعض الروايات بمائة ألف وجيش المسلمين الذي يزيد قليلا عن اثني عشر ألف جندي ـ ومع وجود فارق في العدة والعتاد لصالح القوط ، ومع أن القوط كانوا دولة منظمة تدور الحرب على أرضها وورائها رصيد بشرى ومادي هائل ، بينما كان المسلمون خليطا من العرب والبربر حديثي العهد بالإسلام وليس وراءهم ـ كما قال طارق ـ إلا البحر . .؟؟

انتقالا إلى هذا الفتح العظيم الذي لا يرقى إليه شك يعلق الدكتور مكي بقوله :

(وكان من الطبيعي أن يلهب هذا النصر الهائل الذي أحرزه طارق أخيلة المسلمين بعد ذلك ، فإذا بهم يضيفون على رواية الفتح تفاصيل من صنع الخيال حول أسبابه وأحداثه وشخصياته ، وظلت هذه التفاصيل تتضخم جيلا بعد جيل حتى أصبح فتح الأندلس محاطًا بحلقات ودوائر من الأساطير جعلت تمييز خيوط الحقيقة التاريخية فيه من بين النسيج القصصي أمرا من الصعوبة بمكان)[1] .

ثم يضيف رابطًا بين أسطورة وهرز اليمن وأسطورة إحراق

---

(١) المكان السابق .

طارق للسفن بقوله : (ولعلنا قد لاحظنا التشابه الواضح بين خبر إنزال طارق بن زياد جنوده بساحل الأندلس وبين ما تذكره الأخبار العربية القديمة عن وقائع وهرز الفارسي وسيف بن ذي يزن لبلاد اليمن ، وهذا هو ما جعل كثيرًا من أخبار الفتح اليمني يتسرب إلى قصة فتح الأندلس)(١) .

على أن أهم إضافة دخلت إلى رواية الفتح من قصة وهرز كانت حول أحداثه . فقد رأينا كيف عمد القائد الفارسي إلى إحراق مركبه حتى يقطع على جنوده كل سبيل للتفكير في العودة أو النكوص على أعقابهم ، فرأى بعض القصاص في عصور متأخرة أن يضيفوا قصة إحراق المراكب إلى أحداث الفتح الأندلسي ، ولعل ما دفعهم إلى ذلك كان ما جاء في نص خطبة طارق الأصلية : « أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر » فقد رؤوا أن خير ما يجسم هذا المعنى هو أن يجعلوا طارق يحرق مراكبه)(٢) .

ويدعم الدكتور مكي رأيه في أسطورية قصة حرق السفن في

---

(١) المكان السابق .

(٢) محمود على مكي ، مرجع سابق .

فتح الأندلس حين يذكر أن اليمنية الذين عزيت إليهم الأسطورة الأولى كانوا من العناصر الأساسية في فتح الأندلس . . فكان هذا الأسلوب في الترويج الأسطورة هو أسلوب يمني معروف ، يقول الدكتور محمد مكي :

(يجدر بنا أن نشير بهذه المناسبة على أن كثيرًا من رجالات الفتح الأندلسي كانوا من أصول يمنية . وقد رأينا أن طريف بن مالك الذي قاد أول سرية استطلاعية حلت بشواطئ الأندلس كان من النخع أو من معافر على رأي بعض المؤرخين . ومن معافر أيضا كان على وجه التحقيق عبد الملك بن أبي عامر ـ الجد الأعلى للحاجب المنصور بن أبي عامر ـ كان من رجال طارق بن زياد وهو فاتح قرطاجنة من أعمال الجزيرة الخضراء ، هذا على عدد كبير من القبائل اليمنية التي استقرت منذ الفتح في مختلف أنحاء شبه الجزيرة ، ولا يبعد أن يكون لهؤلاء أو لذرياتهم نصيب في إرفاد قصة فتح الأندلس بتفاصيل من تلك الأقاصيص القديمة حول ملحمة سيف بن ذى يزن وتحريره اليمن من الأحباش)[١].

وفي سنة (١٥١٩ م) ـ أي بعد سقوط الأندلس (١٤٩٢ م)

---

(١) المكان السابق .

بنحو ثلاثة عقود فقط قدم التاريخ الأسبانى أسطورة حرق المراكب في قصة فتح أسبانيا للمسكيك وهي القصة التي كان يطلبها القائد أرنان كورتس (Arnan Cortes) وأيضا فقط خطب كورتس بعد إحراقه للسفن خطبة تشبه إلى حد كبير خطبة طارق[1].

ونحن لا يهمنا الوقوف كثيرًا عند الأسطورة الأخيرة ، فليست داخلة في موضوعنا ، وإنما يهمنا بيان هذا النهج الذي اعتمده بعض المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم الدكتور أحمد مختار العبادي ، والدكتور محمود على مكي ، في معالجة قصة إحراق طارق للسفن .

ولقد كان الدكتور مكي صريحًا واضحًا فنفي - بكل وضوح - قضية إحراق طارق للسفن واعتبرها أسطورة ، وقد عالجها الدكتور أحمد مختار العبادى بالمنهج نفسه إلا أنه انتهي إلى القول - مع ذلك - إلى أنه لا يستطيع نفي القصة أو إثباتها معتمدًا في تردده في الحكم على (وقوع أحداث مماثلة) - حسب تعبيره .

(١) انظر تاريخ المغرب والأندلس : د/ أحمد مختار العابدي ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ، ص ٦٦ ، وانظر د / محمود مكي ، المرجع السابق .

ومن هذه الأحداث ما روى من أن فاتح صقلية أسد بن الفرات أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان بسبب المجاعة التي حاقت بهم . . فأراد حرق المراكب . . لكنه ضرب ابن قادم زعيم المتردين فماتت دعوة التردد وعادت الهزيمة إلى الأنفس[١] .

ونحن لا ندرى ما هي الأحداث المماثلة التي وقعت واتكأ عليها الدكتور العبادي في هذه القصة حتى يبرر تردده في الحكم ؟

إن مجرد إرادة أو إيهام أسد بن الفرات لجنود بأنه يريد ـ أو أنه قادر ـ على إحراق السفن ليس حدثًا يأخذ شكل الواقعة التاريخية ويتكئ عليه ، فهذه الإرداة أو الإيهام أو التهديد للجنود أمر لا ضير فيه بل قد يكون مطلوبًا ، وهو جائز بكل المقاييس العسكرية والشرعية أما تنفيذ ذلك ، والتضحية الانتحارية بجيش بأكمله ، وبأسطول قد يصعب تعويضه ، فهو الأمر الخطير الذي يجب أن نتوقف عنده . وهو ما لم يقدم لنا الدكتور العبادي دليلا عليه ، مع

(١) رياض النفوس ١ / ١٨٨ ، نقلا عن العبادي ، المرجع السابق .

أنه أيد عدم وجود هذه القصة في المصادر التاريخية التي ظهرت في القرون الأربعة التالية .

بيد أننا نتفق مع الدكتور العبادي في أن قصة إحراق المراكب ـ أو أسطورتها ـ كانت شائعة ومعروفة في أسبانيا ، لدرجة أن بعض الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها في بعض أعمالهم الحربية وما زال الأسبان يستعملون مثلا شعبيًّا معناه « أحرقت كل سفني »[١].

« أو بذلت كل طاقتي » (He Quemado Todasnaves) .

ونحن لا نستعبد أن يكون التراث الشعبي الأسباني الذي راعته بطولة المسلمين الفائقة في واقعة الفتح صاحب الفضل في نسج هذه القصة ، تقليلا من شأن النصر ، إذ هو لم يتم إلا بعمل انتحاري ، وليس بإيمان في ظل ظروف عادية . ولقد ظهر نوع مستقل من الأغاني الشعبية الأسبانية المجسدة لقصة الصراع بين المسلمين والنصارى ، وهي أغان كان يطلق عليها أغاني الحدود Fra Nerizos Romances[٢] ولعل هذا النوع من الأدب هو المسؤول عن اختراع هذه القصة ثم تلقفها بعض المسلمين ، فبدت

(١) د / العبادي ، المكان السابق .

(٢) د / مكي ، المرجع السابق .

وكأنها إسلامية المنشأ . ولعل في ظهور هذه القصة بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) ـ وليس قبلها ـ وفي فترة تأجج الصراع فيما يعرف بعض الاسترداد ، وبداية تخاذل الجبهة الإسلامية الأندلسية وتفككها . لعل في ظهور هذه القصة في هذا الزمان ـ وليس قفله ـ دليلًا على أن موطن هذه الأسطورة كان أسبانيا النصرانية ، ثم تسربت إلى الأندلس الإسلامية التي كانت في حاجة إلى بطولات كان أسبانيا النصرانية ، ثم تسربت إلى الأندلس الإسلامية التي كانت في حاجة إلى بطولات تقوم على الأساطير ، لأنها عجزت عن حل مشكلات حاضرها على ضوء حقائق تاريخا الذي صعب عليهم ترسم خطاه .

لقد كان حديث فتح الأندلس ـ في عصور اضمحلال أمر المسلمين ، وسقوط المدن الإسلامية بما في هذا الفتح من مشاهد بطولة رائعة ـ كان حديث الفتح هذا من أكثر ما يجرى على ألسنة المسلمين في هذه البلاد ، وما يثير في نفوسهم مشاعر الفخر والاعتزاز ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا : إن هذا الحديث كان يزداد تردده وإضافة المزيد إلى تفاصيله كلما تزايد ضعف المسلمين في الأندلس واشتد ضغط القوى النصرانية عليهم ، فقد كانوا

يحاولون أن يستمدوا من أحاديث الفتح وسير أبطاله ما يشد العزائم الخائرة، ويحيي الهمم المتهالكة.

أما نصارى الأندلس فإنهم لم يكونوا يقلون عن المسلمين إقبالا على هذه الأحاديث ورغبة فيها، فقد كانوا يريدون أن يتخذوا من ذلك الماضي عظة وعبرة، هذا فضلًا عن الإعجاب الخالص بالبطولة، حتى وإن كان البطل خصمًا لا مفرّ من مجالدته وقتاله.

وقد رأينا مثلا لذلك في مجموعة الأغاني الشعبية الأسبانية تنتمي إلى ما كانوا يسمونه (أغاني الحدود) وهي تتناول الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى على مناطق الحدود، وفيها مع ذلك كثير من مشاعر الإعجاب بفروسية المسلم وبسالته.

وقد حمل ذلك النصارى أسبانيا على تتبع أخبار فتح الأندلس وملاحم الصراع بين الإسلام والمسيحية فيما تلا الفتح من العصور، بل كان لهم نصيب في إضافة كثير من الأحاديث القصصية والأسطورة إلى تلك الأخبار [1].

وهكذا ـ سواء من جانب الجبهة الإسلامية أم الأسبانية ـ نرى

(١) محمود مكي، المرجع السابق.

الصلة وثيقة بين إحراق طارق بن زياد للسفن ، وبين الأسطورة ، وقد رأي الطرفان مصلحة الاستغلال الأسطورة ، هذا للتغنى بالماضي حين عزّ عليه الحاضر القوي ، وذاك للانتقاص من قيمة نصر طارق في فتح الأندلس .

خطبة طارق
ما مدى دلالتها على حرق السفن؟

يعتمد القائلون بحرق طارق بن زياد السفن التي عبر عليها على بعض العبارات التي وردت في الخطبة المنسوبة إليه ، والتي توهم بوقوع هذا الإحراق ـ من وجهة نظرهم ـ أو توهم بعدم وجود أسطول سواء كان قد أحرق أم أبعد ، كما تفيد النصوص من وجهة نظرنا !! بيد أننا لا نجد ما يوجب أن يكون عدم وجود الأسطول على الشواطئ الأسبانية مفيدًا ـ بالضرورة ـ لوقوع الإحراق ، فقد يكون طارق قد أمر الأسطول بالابتعاد عن الشاطئ ، لإيهام الجند بأن (البحر من ورائهم) وبالعودة إلى المغرب لإحضار مزيد من المؤن أو العتاد .

على أن عبارة (البحر من ورائكم) الذائعة لا توجب بالضرورة إحراق السفن أو ابتعادها فوجود السفن في البحر لا يعني أن البحر قد تحول برا ، وأن مخاطر الانسحاب غير مأمونة بالكامل ، بل ثمة خسائر كثيرة يمكن أن تقع عند الهزيمة مع وجود السفن أيضا . . وبالتالي فقد يصح ورود العبارة مع وجود السفن ولا

تعارض بين الأمرين ، إذ البحر من وراء الجنود والعدو من أمامهم على كل حال .

بيد أن المشكلة الحقيقة هي في مدى الثبوت التاريخي لخطبة طارق نفسها ، فالنقد التاريخي الحديث المتكئ على المصادر ، وعلى النقد المنطقي يشكك في نسبة الخطبة إلى طارق ، أو على الأقل في نسبة هذه النصوص البلاغية التي شاعت في كتب الأدب وبعض كتب التاريخ للخطبة .

ومع هذه الشكوك ـ فإن الاستدلال بالخطبة على ثبوت الإحراق استدلالا بضعيف على ضعيف .

إن مصدر المشكلة في خطبة طارق ـ كما ذكرنا ـ هو هذه البلاغة التي تميزت بها الخطبة مع أن طارق عرف بأنه بربري الأصل . . فمن أين له هذه البلاغة ؟

ولقد اختلفت النصوص التي وردت بها الخطبة وتباينت ، وكان هذا من عوامل الشكّ فيها .

وقبل أن نتكلم في مدى الصدق التاريخي لهذه الخطبة ، نوردها وفق أكثر نصوصها شيوعا وبلاغة في كتب التاريخ والبلاغة ،

وبالتالي نقف وقفة متأنية أمام قضية صدقها التاريخي .

وهذا نص خطبة طارق بن زياد عند فتح الأندلس ، كما وردت في : فتح الطيب « لأحمد المقري التلمساني » [(١)] :

أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أماكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم اليوم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا ، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فارفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم . بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم دوني خطة أرخص متاع فيها النفوس ، أبدأ بنفسي .

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفر

---

(١) ١ / ٢٢٥ طبع بيروت .

من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميقة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ودون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولي إنجازكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين . واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم عليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا أنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله .

فإذا تركنا هذا الصيغة التي أوردها المقري صاحب نفح الطيب ، والتي تعتبر أكثر الصيغ الواردة للخطبة إطنابا وبيانا وبلاغة ، فإننا لا نكاد نجد صيغة تتشابه معها في أي مصدر من المصادر ، اللهم إلا في الذين نقلوا عن نفح الطيب ، ولا قيمة لرواياتهم لأنهم محدثون نقلة ، . بل إن ابن الكردبوس الذي يعتبر من القلائل

الذين أشاروا للخطبة قد أوردها بصورة جد مقتصبة . . ونحن نقل نصه كاملا ليعرف حجم اقتضابه . . يقول :

ـ ورحل طارق نحو قرطبة بعد أن أحرق المراكب (!!) وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا) .

ثم يقول :

(ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقًا ، فلما تدانيا ، تخير لذريق رجلا شجاعًا عارفا بالحروب ومكائدها ، وأمره أن يدخل في عسكر طارق فيرى صفاتهم وهيآتهم ، فمضى حتى دخل في محلة المسلمين ، فأحس به طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ . فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها . فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرا وغنما وجعل لحومها في تلك القدور .

وأصبح الناس فنودي فيهم بالاجتماع إلى الطعام فأكلوا عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم ، فلما فرغوا ، انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بني آدم ، صفاتهم

الصفات التي وجدنا في البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على (الموت والفتح) فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا)[1] .

وهذا كل ما أورده ابن الكردبوس عن خطبة طارق العصماء !!

بيد أنها وردت في أقدم المصادر الأندلسية التي كتبت عن الفتح الإسلامي لأسبانيا على النحو التالي :

(أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . فليس لكم والله إلا الصدق والصبر . ألا وإني قادم إلى طاغيتهم بنفسي لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه)[2] .

ولسنا في حاجة بعد هذين النصين أن نتتبع بقية الروايات التي وردت بها (خطبة طارق) . . وحسبنا أن نذكر أن هذه الخطبة لا تكاد ترد ـ إن وردت ـ في مصدرين على نحو متشابه في الألفاظ والتعبيرات ، وإن اقتربت من المضمون . . وهذا أمير يؤكد لنا أن

---

(١) تاريخ الأندلس ، مستلة من الاكتفاء لابن الكردبوس ص٤١-٤٧ بتحقيق العبادي .

(٢) تاريخ ابن حبيب (نص خاص بافتتاح الأندلس) ، حققه الدكتور محمود مكي صحيفة مدريد ١٩٥٧ .

(أسلوب) الخطبة قد لعبت فيه أهواء البلاغة والبيان ، وتلقاه كل ناقل بما يجب من الفصاحة ، فأضفى عليه من نفسه واسط عليه من فصاحته .

ولهذا نجد نصها في تاريخ عبد الملك بن حبيب [1] مختلفا عن نصها في « الإمامة والسياسة » المعزو لابن قتيبة الدينوري [2]. وهما يختلفان عن النص الوارد عند ابن خلكان [3] وعن النص الوارد عن المقري التلمساني صاحب « نفح الطيب » [4] .

ولا تكاد توجد نصوص للخطبة في غير هذه المصادر التاريخية ، باستثناء كتب الأدب والبلاغة التي لا يعول كثيرًا عليها في ثبوت النصوص التاريخية ؛ لأنها تركز في الأعم الأغلب على مضمون النص أكثر من صحته التاريخية .

وقد أورد ابن عذاري المراكشي في كتابه الموسوعي « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » عددا من الآراء حول موقعة

---

(١) المكان السابق .
(٢) ٢/ ١١٧ .
(٣) وفيات الأعيان : ٤ / ٤٠٤ بتحقيق محي الدين عبد الحميد .
(٤) مكان سابق .

وادي لكة أو شذونة ـ وهي المعركة الكبرى التي انتهت بفتح الأندلس على يد طارق سنة٩٢ هـ ومقدماتها ، فنقل عن (عريب) ، وعن صالح بن أبى صالح ، وعن ابن القطان ، وعن الرازي ، وعن الواقدي ، وعن عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر دينار ، وعن غيرهم [١]، لكنه ـ مع ذلك ـ لم يورد أدنى إشارة إلى هذه الخطبة ، ولا إلى إحراق طارق للمراكب !! كما أن ابن الأثير في « الكامل » ذكر أنه يكتب ما يكتب عن فتح الأندلس (من تصانيف أهلها إذ هم أعلم ببلادهم) [٢] ، ومع ذلك فلم يذكر شيئًا عن خطبة طارق .

بل إن الدكتور محمود على مكي ـ وهو الثبت المحقق في التاريخ الأندلسي وأدبه ـ يرى أن هذه الخطبة دخلتها عناصر أسطورية مثلما دخلت غيرها ، بل لعلها ـ في رأيه ـ مستحدثة على غرار الخطبة الأسطورية المختلفة التي نسبت إلى وهرز فاتح اليمن صحبة سيف بن يزن . . وهو يقول بهذا الصدد :

(وربما كان أول مظهر لهذا التسرب ـ تسرب أسطورة وهرز إلى

---

(١) ٢/ ٤ ، ٨ طبع بيروت .

(٢) الكامل : ٤ / ٥٥٦ طبع في بيروت ، دار صادر .

الفتح الأندلسي ـ ما نراه في خطبة طارق بن زياد ، وقد كان نصها القديم الموجز الذي ورد عند عبد الملك بن حبيب مماثلا في خطوطه العامة لنص خطبة وهرز كما ساقها لنا هشام الكلبي .

غير أن مثل هذا النص المحكم البديع لم يكن ليرضي أخيلة الناس في العصور المتأخرة فإذا بهم يضيفون إليه فتستطيل الخطبة حتى تبلغ أضعاف نصها الأول ، وكأن ذلك لم يكفهم فإذا بهم يزقونها بألوان من السجع وزخارف الألفاظ إلى حد يجعل الباحث يحكم من النظرة الأولى بأن الخطبة تعرضت لزيادات متعاقبة لا شك في أنها مصنوعة)[1].

والسؤال الوارد هنا ـ في ظل هذا العرض :

ما مدى الصدق التاريخي في هذه الخطبة من جانب ، وفي نسبتها إلى طارق بن زياد من جانب آخر ؟

أما الصدق التاريخي في (جوهر) خطبة طارق بن زياد فنحن نميل إليه ، فهو أمر درج عليه الفاتحون العرب والمسلمون ، ذلك لأن المسلمين كانوا يعتمدون في انتصاراتهم على الروح المعنوية ،

---

(١) محمود مكي : الكتاب التذكاري لجامعة الكويت ١٩٧٦ مقال حول أسطورة حرق السفن .

والإيمان القوى بالله وبما أعده للشهداء ، فكانت حروبهم تهدف إلى غايتين لا ثالث لهما : النصر لإعلاء كلمة الله أو الشهادة .

ولو أننا تعمقنا في بعض روايات خطبة طارق لوجدنا فيها عبارة (القتل أو الفتح) أو (انتصروا أو موتوا) ، وهما ـ فيما أعتقد ـ الترجمة لعبارة (النصر أو الشهادة) التي أعتقد أن طارق ابن زياد قد خطب بها ، وبشئ حولها ، في أصحابه .

أما من ناحية (نص الخطبة) بهذه الديباجة المشرقة والسجع غير المتكلف ، والبيان الرائع ـ الذي ورد في النص الذي تتداوله الكتب الأدبية والمدرسة ـ فهذا ما استبعد أن له أساسًا تاريخيًّا ، سواء من ناحية انقطاع السند أو المتن .

فمن ناحية انقطاع السند : نعرف أن الخطبة لم ترد إلا بعد عدة قرون تصل إلى العشرة ، إذا ما نظرنا على رواية نفح الطيب الذائعة الصيت . . أما ما قبلها من الروايات فليس فيها شيء من هذه الديباجة المشرقة ـ على النحو الذي بسطناه سلفًا .

ومن ناحية المتن : فإنه من المستبعد عقليًّا أن يكون طارق بن زياد قادرا على صياغة تلك الخطبة ، ولاسيما وأن مثل هذه الخطبة تقال ارتجالا في الغالب ولا تقال بعد إعداد وتدبيج . ومبعث عدم

قدرة طارق على إعداد تلك الخطبة أنه كان (بربري الأصل) - على أرجح الآراء وأقواها وأكثرها - فهو بربري من (نفزة) كان مولى لموسى بن نصير من سبي البربر . وقال آخرون : إنه فارسي ، والنتيجة واحدة ، فهو أعجمي على أية حال ، وإن كنا نرجح - كما ذكرنا - بربرته . . وقد أورد صالح بن أبي صالح في نسبه - كما نقله عنه ابن عذاري : - أنه (طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن نيزغاش بن ولهاص بن نغزاو)[1] .

وليست المشكلة فقط في (بربرية) طارق التي يعتذر معها - مع حداثة العهد بالعربية - إبداع مثل هذه الخطبة . . بل المشكلة - أيضا - في الجيش المتلقي للخطبة ، إذا أن هذا الجيش - كذلك - كان معظمه من البربر . فكيف توجه خطبة بهذه الرصانة العربية لجيش بربري ؟ وما فائدتها في هذا الوقت العصيب الذي يراد فيه لكل كلمة أن تؤتى ثمارها ؟ ومن هنا فنحن نرجح أنه ربما ألقى خطبته باللسان البربري ، ثم ترجمها إلى العربية بعض من كانوا في الجيش حتى تصل معانيها إلى عنصري الجيش معا ، وهما البربر والعرب .

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٥ بتحقيق بروفنال ، ونشر بيروت .

ونحن نرى أن إطار الخطبة كان هو الإطار المحدود الذي ألمحنا إليه ـ وهو النصر أو الشهادة ـ ثم جاء المدونون والكتاب العرب فتوسعوا فيها ـ جريًا على عادتهم ـ بالبيان والسجع والتحلية والإطناب .

ومعروف أنه في عصور مختلفة ـ من حضارتنا ـ لم تكن المترجمات تلتزم الديباجة الجافة للأصل المترجم عنه ، بل تعتمد على (تعريب) المنقول لفظًا وأسلوبًا . . بل تحاول إفراغه في روح عربية لو استطاعت إلى ذلك سبيلا .

فلهذا ألبست خطبة طارق الثوب العربي ، وتوسع فيها ألفاظا ومعاني حتى وصلتنا بهذه الصورة التي نقلها إلينا المقري التلمساني في كتابه « نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب » .

وهذا ما نراه فصل الخطاب في هذه الخطبة التي دخلت الأدب ـ كخطبة عصماء ـ من أوسع الأبواب . لكن مساريها بدأت تضيق عندما حاولت الدخول في مجال التاريخ .

وفي ضوء هذا التحليل ـ سواء حول ثبوت نص الخطبة أو حول دلالتها على حرق السفن ويبدو أن الاعتماد على الخطبة في إثبات قصة إحراق السفن ليس استدلالا في موضعه ، فليست

الخطبة قطعية الثبوت . وإذا ثبتت ـ في صورتها الوجيزة التي وردت عند ابن حبيب ـ والتي يمكن نسبتها إلى طارق ـ فليست ـ مع ذلك ـ قطعية الدلالة ، بل إنها بعيدة كل البعد عن الدلالة المباشرة لإحراق السفن وتحتمل في دلالتها أكثر من وجه ، ولهذا تكاد تفقد قسمتها بالنسبة لقضية إحراق السفن .

***

وردت قصة إحراق السفن كمسلمة تاريخية لدى كثير من الكتب المدرسية والشعبية في العصر الحديث ، وتكاد القصة ترد دون وقوف عندها أو تحليل لدى عدد كبير من هؤلاء . ولم نشأ أن نقف عند هذه البحوث التي كتبت بأقلام غير متخصصين ؛ لأنه أمر يخرج عن نطاق البحث العلمي الرصين ، وحسبنا أن نقف عند المراجع التاريخية العلمية ؛ لأنها ـ على الأقل ـ أكثر من غيرها ، وقد وقفت من القضية موقف التمحيص والتحليل .

ولم نجد فيما بين أيدينا من المراجع التاريخية الحديثة من ذهب إلى تأييد قصة إحراق السفن إلا عددًا محدودًا من المراجع [(١)] ، ومن

(١) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي : د / أحمد شلبي ج٤ طبع القاهرة ، ومع المسلمين في الأندلس : علي حبيبة ، وتاريخ الإسلام السياسي : حسن إبراهيم ١ / ٣٢٠ط٩ مصر ، والإسلام والحضارة العربية : محمد كرد ص٢٥٣ط.مصر .

الغريب أن الدكتور أحمد مختار العبادي ،بعد أن يورد صلة القصة بالطابع الأسطوري عند الشعب الأسباني ، ينتهي القول بالتردد في الحكم [١].

(١) في تاريخ المغرب والأندلس : ص٦٦ ، طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية .

النافون والمتجاهلون للقصة من المؤرخين والمحدثين

أما النافون للقصة فهم الجمهرة الغالبة من المتخصصين في الدراسات التاريخية والأندلسية ، وكل ما يلاحظ في هذا المقام هو أن معظم هؤلاء لم يقف عند القصة الوقفة الكافية التي تتناسب وشيوع القصة في الذهنية المعاصرة .

بل إن كثيرًا منهم قد تجاهلها بالمرة ، ولم يرد لها ذكرًا على الإطلاق ، فليست القصة حدثًا ثانويًّا أو أمرًا عابرًا بهذه الدرجة [(١)] .

ومن المعروف أن الأمير شكيب أرسلان كان يقف موقف المحلل للكثير من القضايا ، ومع ذلك هو لم يعرض لقصة الإحراق ، وإنما اكتفى بذكر بعض المسلمات التاريخية كقوله : (إن موسى جرد

(١) من هؤلاء على سبيل المثال : الدكتور إبراهيم بيضون في كتابه : الدولة العربية في أسبانيا ط.بيروت ص٧٢،٧٣ ، ومنهم محمد حسن فجه في كتابه : « محطات أندلسية ». دار السعودية ١٩٨٥ص١٦،١٧ ، ومنهم جورجي زيدان في رواية فتح الأندلس ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، وانظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم ٢/ ٣٥٨ ، ٢٥٩ نشر الإسكندرية والدكتور أحمد شكري : قرطبة في العصر الإسلامي ص١٠،١١ط.١٩٨٣ ولطفي عبد البديع : الإسلام في أسبانياص٣/ ط٢ مصر .

تجريدة لاثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر ، فعقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله واحتز رأس لذريق وبعث به إلى الخليفة في دمشق (!!!) ، وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليطلة ، وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه أجب أن يلقي الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره ، وطارق بن زياد هو الذي سمى باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق)[١].

وهذا كل ما أورده شكيب أرسلان في المقام الذي كنا نطمع فيه أن يورد شيئًا عن قصة إحراق السفن .

أما المؤرخ العسكري الأستاذ محمد شيت خطاب ـ وهو الذي عرف عنه وقوفه عند مثل هذه الوقائع بتحليلها من الوجهة العسكرية « والاستراتيجية » على الأقل ـ فإنه لم يقف عندها كذلك إطلاقًا ، وكل ما ذكره حول فتوحات طارق أن طارقًا فتح مدينة قرطاجنة الجزيرة ثم زحف غربا واستولى على المنطقة المحيطة بها وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، وبعد

---

(١) تاريخ غزوات العرب : ص٢٩ ، ٣٠ دار الكتب العلمية ، بيروت .

معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلى الأندلس ، فزحف لذريق لصدّ المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه مددًا من خمسة آلاف من المسلمين ، والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين هجرية / ١٩ يوليو ٧١١م على وادي برباط أو وادي لكنه قرب مدينة شذونة ، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام وانتهت بهزيمة ساحقة ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين [١].

وهكذا عبر القصة ـ بتجاهل ـ تام كاتبان كبيران كنا نتوقع منهما أن يقفا عندها وأن يحللاها التحليل المناسب لتخصص كل منهما ، أولهما من الناحية الإسلامية والتاريخية ، وثانيهما من الناحية العسكرية ، ولكنهما آثرا أن يتجاهلاها بالمرة !!

الرافضون للقصة من المؤرخين المحدثين :

أما أستاذنا المؤرخ محمد عبد الله عنان فقد عالج قضية إحراق السفن في القسم الأول ـ العصر الأول ـ من موسوعته حول دولة الإسلام في الأندلس ، فقد مال إلى نفي القصة ، وإن كان قد تردد

(١) قادة فتح المغرب ١ / ٢٤٥ ، ٢٤٦ ط.دار الفكر ١٩٧٨ م .

فذكر أنها (عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس) [١] ونحن لا نرى فيها ـ لو صحت ـ أية بطولة ، بل نراها عملا انتحاريًا لا يقدم عليه المسلمون ، ومع ذلك فالأستاذ عنان يميل إلى نفيها ـ كما ذكرنا ـ بل هو يراها (واقعة يغلب عليها لون الأسطورة وإن كانت مع ذلك تعرض في ثوب التاريخ الحق) [٢].

---

(١) ص٤٩ مكتبة الخانجي - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٩م .

(٢) المرجع السابق :ص٤٨ .

قضية إحراق طارق للسفن
في نظر المؤرخين المحدثين

ويقدم الأستاذ عنان لنفيها عددًا من الأدلة منها : أننا (نعرف أن الكونت يوليان هو الذي قدم السفن التي ركبها العرب إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم في حملتهم الغازية بقيادة طارق ، وهنا تذكر الرواية أن طارقا ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسي حتى أمر بإحراق السفن التي عبر عليها جيشه ، وذلك لكي يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير في التخاذل والارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟) .

ويجيب الأستاذ عنان على تساؤله :

(إن جميع الروايات الإسلامية التي تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئًا عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا في موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقًا أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس ، وقد نقلت بعض

التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي فيما يرجح ، وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال : إن في الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ، فطارق يستله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » وفي ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقي ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التي حملته في عرض البحر إلى أسبانيا ، ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب .

ولو صح أن طارقًا ألقى في جنده مثل هذا الخطاب فقد نجد تفسيرًا لقوله في أن السفن كانت ملكًا للكونت يوليان وفي أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة في جميع الأوقات)[١].

وهكذا يميل الأستاذ عنان ـ وهو أحد الباحثين المعاصرين

(١) المرجع السابق : ص٤٩،٤٨ .

الكبار في التاريخ الأندلسي ـ إلى استبعاد (أسطورة) إحراق السفن ـ حسب تعبيره ـ وهو يقدم لنا ـ وهذا هو الجديد في رأيه ـ تفسيرًا لخطبة طارق التي توهم منها بعضهم ـ واستدل بها ـ على أن طارقًا أحرق السفن ، لأن عبارة (البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم) قد تعنى ملكية يوليان للسفن ، وعدم قدرة المسلمين ـ بالتالي ـ على جعلها طوع أوامرهم . . وهو مجرد افتراض من أستاذنا الكبير ، ونحن لا نميل إليه ، لأننا لا نؤيد القول بأن المسلمين لم يكن لديهم أسطولهم الخاص بعد موقعة ذات الصواري (٣٥هـ) البحرية بنحو ستين سنة !! ، كما أن الاستراتيجية العسكرية السليمة تقضى باستبعاد هذا الفرض ، فضلا عن النصوص التاريخية المؤيدة لوجود سفن لدى المسلمين أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد .

على أن أستاذنا الدكتور حسين مؤنس لم يقف وهو يؤرخ لفتح الأندلس عند قصة إحراق طارق للسفن ، ليس عن إهمال أو نسيان لها ، ولكن لأنه ـ كما بدا لنا ـ لا يراها جديرة بالوقوف عندها ، فهو لم يشأ أن يعرض لها في متن كتابه « فجر الأندلس » ، وإنما اكتفي بإيراد إشارة وجيزة في الهامش يذكر فيها أن المؤرخين

المحدثين يميلون (على القول بأن طارقا عمد إلى السفن التي عبر عليها فأحرقها لكي يقطع كل أمل لجنوده في العودة إلى إفريقية ، وليدفعهم إلى الاستبسال في القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا الإدريسي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي - كتب جغرافيته ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م - ولهذا نشك في صحة هذا الخبر ، ثم إن طارقًا لم يستطع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان)[١].

و قد أورد مؤنس هذا الهامش وهو يتحدث عن تحصين طارق للموضع المعرف بجبل طارق تحصينًا طيبًا ليتخذ منه حصنًا يحتمي به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظرا[٢].

فكأن الدكتور مؤنس يثبت في المتن - من خلال إبرازه لتحصين طارق للموقع - ما يؤكد وجود احتمال للانسحاب لدى طارق ، وهو بهذا ومن خلال التوضيح في الهامش ينفي تلك القصة الشائعة القائلة بحرق طارق للسفن ، فكأن دحضها عنده لا يستحق أن يوضع في المتن ولا أن يلقي اهتماما أكثر من هذا القدر

(١) فجر الأندلس : ص٦٩ ، الدار السعودية للنشر الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ .

(٢) المكان السابق .

الهامشي .

أما الدكتور عبد الرحمن الحجى في كتابه « التاريخ الأندلسي » فقد أنكر قصة حرق السفن هذه من منطلق عقلي وإسلامي خالص . وقد أدار حوارًا حول بعض الحجج التي يوردها القائلون بحرق طارق للسفن ، ثم رد على ما طرحه هؤلاء من حجج .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي : (هل حقًّا أن طارقًا أحرق السفن التي عبر بها المضيق ، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة فيستميت في الدفاع ؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك . لكن لماذا يحرق طارق السفن ، سواء امتلكها عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة ، وطارق متأكد من هذه المعاني .

فإذا كانت السفن ليليان فليس من حق طارق التصرف بها .

وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملا عسكريا سليما أو مناسبا ، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض ، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد .

إن دوافع المعاني الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله

لأقوى في الاندفاع من أي سبب آخر ، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، بل لذلك أتوا . والمصادر الأندلسية ـ لا سيما الأولى ـ لا تشير إلى قصة حرق السفن تلك لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة)[١].

ومن المؤرخين المعاصرين المتخصصين في الدراسات الأندلسية الذين وقفوا عند القصة وأدلوا فيها برأي ـ الدكتور محمد عبد الحميد عيسى في كتابه عن « الفتح الإسلامي للأندلس » فقد جاء في كتابه آنف الذكر :[٢]

(حاولت ، مع اقتناعي الكامل بعدم حدوث هذه الواقعة تاريخيًّا واقتناعي الكامل بأن طارقًا بن زياد ما كان ليقدم على مثل هذا العمل ، أن أجد تعليلا لظهور هذه القضية في بعض المدونات التاريخية ، والقراءة المتأنية لذلك الخبر عند ابن الكردبوس ، وعند المقري يمكنها أن تلقى الضوء على تلك المسألة التي اختلف حولها المؤرخون ، يتحدث ابن الكردبوس عن جاسوس دسه لذريق

---

(١) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٧٩٨) :-/ عبد الحميد علي الحجي : ص٦٢ ، طبع دار القلم بدمشق والكويت الطبعة الأولى (١٣٩٦) .

(٢) ص١١٧ هامش – طبع القاهرة – أولى – ١٩٨٥ م .

ملك أسبانيا داخل الجيش الإسلامي ليتعرف له على دخيلتهم ، ويشعر المسلمون بالجاسوس ، فلا يقبضون عليه ، إنما يستفيدون من وجوده ، ويأمر طارق جنوده ، بأن يقطعوا جثث الموتى من أسراهم ، ويضعوها في القدور ويغلوها على النار ، ثم يقومون خلسة برمى لحم الموتى ، ويحلون محله البقر والغنم ثم يدعون الناس للطعام ، فيتصور الجاسوس أن المسلمين يأكلون لحوم البشر ، ومن هنا : هل عمل المسلمون نفس الشيء وأوهما الجاسوس حرقهم لمراكبهم ؟)[١] . مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحدثوا بها لإيقاع الرعب في قلوب عدوهم وهذا ما حدث بالفعل ، عاد الرجل إلى لذريق يقول له : (أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بني آدم صفاتهم الصفات التي وجدنا في البيت المقفل وقد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح ، فداخل لذريق من ذلك وجيشه من الجزع ما لم يظنوا)[٢] .

ولعل رواية المقري أكثر وضوحًا وتؤيد هذا الاتجاه الذي

---

(١) إننا نميل إلى إمكانية وقوع هذا .. وهو مما يجوز حربيًا من وجهة النظر الإسلامية ، وانظر بقية النص وتحليلا له عند حديثنا عن رأينا في القضية في نهاية البحث .

(٢) انظر ابن الكردبوس ص٤٨ ، ٤٩ .

أتصوره ، فهو بعد أن يقص رواية هذا الرجل الذي دسه لـذريق في صفوف المسلمين ، يذكر بأنه عاد إلى لذريق ليقول لـه : فقـد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قـدميك ، قـد حرقـوا مراكبهم إياسًا لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا في السهل مـوطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مكـان مهـرب ، فرعـب وتضاعف جزعه [١] .

وقد تعرض لقصة إحراق السفن من المعاصرين ـ أيضا ـ الدكتور محمد محمد زيتون خلال دراسة له عن « الفتح الإسلامي للأندلس » [٢] ، فرأي أن طارقًا لم يحرق السفن (لأنه يعلم أن الجنود الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التي يملكها الجيش الإسلامي حتى يضطر إلى قطع أملهم في التقهقر إذا أرغمتهم الظروف إلى ذلك) [٣] .

ويـضيف البـاحـث أن طارقًـا يعلـم أنـه قـد اضـطر قبـل خـوض المعركة إلى طلب المدد من موسى بن نصير عنـدما رأي كثـرة جنـود

---

(١) نفح الطيب : ١ / ٢٥٨ .

(٢) دراسـة منـشورة بمجلـة كليـة العلـوم الاجتماعيـة بالريـاض العـدد الخـامس ١٤٠١هـ.

(٣) المكان السابق .

القوط ، فأمده بخمسة آلاف جندي عبرت بهم السفن على الأندلس ، ولا شك أنه لو طلب مددًا ثانيًا أو ثالثًا لأمده موسى . فعلى فرض صحة ما يروى من إحراق السفن فكيف كان المدد الذي يرسله إليه موسى يستطيع أن يصل إليه ؟

وأخيرا يتساءل الباحث : كيف عبر موسى بجيشه الذي بلغ ثمانية ألفا بعد ذلك بعام واحد ؟ [(١)] .

والباحث محق في تساؤله ، فإن فرصة عام واحد لا تكفي لبناء أسطول جديد . . ثم إن بناء الأسطول عمل ليس سهلا ، بل يقتضي الجهد والمال والرجال . . ونحن نضيف عددا من التساؤلات من جانبنا :

ما الفائدة من هدم أسطول لنبني آخر ؟

وهل كان الأمر يقتضي المغامرة بهذا العدد من المسلمين ؟

ولقد دخل المسلمون قبل فتح الأندلس معارك كبرى ذات تأثير (استراتيجي) أعظم من فتح الأندلس ، فلماذا لم يبيحوا لأنفسهم مثل هذا العمل الانتحاري ؟

---

(١) المكان السابق .

ولنفترض أن المسلمين قد هزموا لأول جولة في فتح الأندلس ، ألم تكن هناك فرص أخرى للكر . . كما هزموا غير مرة في فتحهم للمغرب الذي استمر فتحهم له أكثر من ستين سنة ؟

إن كل هذه التساؤلات تثير علامات استفهام كبيرة حول قصة إحراق السفن .

وينفي القصة ويورد أسباب نفيه لها الدكتور عبد العظيم رمضان ـ أحد المؤرخين المعاصرين ـ فيقول :

(وفي الواقع فإن طارق بن زياد لم يكن ليجرؤ على حرق مراكبه لسببين) :

الأول : أنها كانت مراكبه مختلطة ، أي مراكب يملكها جوليان حاكم سبتة ، ومراكب إسلامية من الأسطول الإسلامي الذي بناه موسى بن نصير .

الثاني : أن حملة طارق لم تكن سوى البداية في فتح الأندلس ، وكان القوة العسكرية التي عبرت تحت قيادته على الشاطئ الأسباني غير كافية لإتمام هذا الفتح .

وكان طارق يعرف أنه إن عاجلا أو آجلا ، سوف يطلب

الإمدادات والنجدات من موسى بن نصير . وبالتالي فقد كان في حاجة إلى المزيد من السفن لهذا الغرض وليس إحراق السفن ! ومن ثم فإن قصة حرق المراكب تبدو خالية تمامًا ، ولا يوجد ما يبررها عقلا)[1].

وهكذا ـ ومن خلال هذا العرض الذي حاولنا فيه الوصول إلى شبه استقصاء لآراء المؤرخين المعاصرين في قضية إحراق السفن ـ نجد :

أن هذه القضية لم تتمتع بالتأييد من المؤرخين المحدثين ، بل تعرضت للنقد من شتى الجوانب ، ولم تستطع أن تقف على أرض ثابتة .

---

(١) الحقيقة التاريخية في فتح الأندلس ، مجلة أكتوبر عدد ٤٠٧ / ١٢/ ٨/ ١٩٨٤ .

إحراق السفن في الإطار الشرعي

كان لا بد من الوقوف مع قصة إحراق السفن وقفة تعتمد على أوثق مناهج النقد، ليس لمجرد إثبات وقوعها من عدمه، بل لأن لهذه القصة بعدا آخر غير بعدها التاريخي، وهو البعد التشريعي الإسلامي، فالحديث يدور عن فترة تنتمي إلى عصر التابعين وحتى فتح الأندلس، وجيوش طارق بن زياد، وموسى بن نصير كان فيها تابعيون كذلك. ولقد كان بعض الصحابة المشهورين أحياء على أيام الوليد بن عبد الملك[1]، ولربما وجد عدد كبير من الصحابة من غير المشهورين، ومع ذلك فاتفاق التابعين أو إقرارهم على عمل ما دون أن يلقى الرفض أو المقاومة إنما يمثل موافقة منهم، وهم أهل للاحتجاج بأعمالهم في عالم التشريع، فيما يعقل أن يتواطأ التابعون على منكر لا يقره الإسلام.

وعلى هذا الأساس فإن لنا أن نتساءل: كيف سكت التابعون على إحراق طارق للسفن؟ وهي يعنى هذا مشروعية هذا العمل من الناحية الإسلامية: هل تسمح هذه البيئة الإسلامية بإحراق

---

(١) نحن نذكر منهم أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ.

السفن دون معارضة ، ودون احتجاج من الساسة أو الفقهاء أو المفكرين أو الشعراء ؟ لقد اختلف الصحابة من قبل وتقاتلوا من أجل مقتل عثمان والخلاف على أسبقية القصاص أو استتباب الحكم ، وكل منهم كان يؤمن بأنه يقاتل عن مبدأ شرعي ؟ ولمجتهدهم المخطئ أجر وللمصيب أجران . فهل يتواطأ التابعون على إحراق أسطول إسلامي في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى الأساطيل لمواجهة الرومان ؟!!

ومن زاوية أخرى ـ شرعية أيضا ـ هل يجوز في الإسلام مبدأ المغامرات الانتحارية ؟ لقد انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد في موقعة (مؤتة) بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب وزيد ابن حارثة وعبد الله بن رواحة ، حين أدرك خالد ومعظم الجيش أن المعركة انتحارية إزاء هذا الفارق في العدد بين جيش المسلمين وجيش الروم ، وقد كان هناك مسلمون فدائيون يطلبون الاستمرار في القتال ، ومع ذلك آثر الجيش الانسحاب بقيادة خالد ابن الوليد وسماهم الرسول عليه الصلاة والسلام (الكرار) ردًّا على من سخروا منهم في المدينة وسموهم (الفرار) . أليس هذا السلوك النبويّ تشريعًا إسلاميًّا يحرم المغامرات الانتحارية ، ويجيز

الانسحاب في حالة وجود مفاجآت تجعل المعركة إبادة للمسلمين ؟ وبالنسبة لقصة إحراق طارق للسفن هل كان ثمة موجب لهذا الإحراق مع أنه لم يكن يعلم شيئًا عن نتيجة المعركة ؟ ! فإذا كان طارق قد توقع الهزيمة للجيش الإسلامي ومن أجل هذا أحرق السفن فإنه يدخل في باب المغامرات الانتحارية التي يحرمها الإسلام .

وهو بهذا ـ ومن معه من التابعين ـ لم يستوعبوا التوجيه النبوي في (مؤتة) وهو ما لا يمكن القبول به .

ـ وإذا كان قد توقع النصر فما جدوى إحراق السفن ؟

وهذه الخسارة المالية التي لا جدوى كبيرة وراءها في عصر يصعب فيه صناعة السفن ، والتي يمكن أن توجد طرق بديلة عنها ، هل هي جائزة شرعًا ؟

إن كل هذه الجوانب ، سواء تلك التي تتصل بالتضحية بالبشر (اثني عشر ألف جندي وسبعمائة تقريبا) [1] ، أم بالسفن ـ تجعل من إقدام طارق على هذا الإحراق عملا مخلا بالشريعة ، وهو ما لا

---

(١) أخبار مجموعة : لمجهول :ص١٧ ، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ ، ٣٩٩ .

يمكن للتابعين ـ بشكل شبه التواطؤ ـ أن يسكتوا عليه ـ أو على الأقل أن لا يظهر أي خلاف فقهي حوله . . لكن هذا السكوت يعنى أنه لم تكن هناك قضية من هذا القبيل ولم يقر بالتالي أي خلاف ؛ لأنه لا يمكن إثارة أي خلاف حول قضية لم تحدث فعلا ، وهو ما نميل إليه ، بالنسبة لتابعي صالح مثل طارق بن زياد ، وبالنسبة لمن معه من التابعين رضي الله عنهم .

إن روح التاريخ الإسلامي التي تستضيء بالشريعة ـ ولا سيما في هذه العصور ـ لا تميل على هذا اللون من السلوك ، فالنظرة الإسلامية للحروب تميل إلى الحفز المعنوي والأخلاقي الروحي ـ لا إلى هذا القهر الانتحاري ـ كما تميل إلى الرغبة في النصر لرفع كلمة الإسلام أو الشهادة لنيل الجنة ورضا الله .

وقد هزم المسلمون في غزوات وسرايا كثيرة حتى أيام الرسول ﷺ من أبرزها غزوة أحد ، كما زلزلوا زلزالا شديدا في غزوة الخندق .

ومع ذلك فلم يرد أي تفكير حول هذا السلوك الانتحاري ، وقد كان المسلمون يعتبرون هذه الهزيمة تمحيصا وابتلاء أراده الله

لاختبارهم وليتخذ منهم شهداء ، وقد دخلوا معارك مصيرية كثيرة أمام الروم والفرس ولم يفكروا في مثل هذا الأسلوب ، فهل ينتهي بهم المطاف إلى هذا العمل الانتحاري في معركة فرعية وغير مصيرية مثل فتح الأندلس ؟!!

إن هذا ما نستبعده ، بل نراه غير ممكن الوقوع ، لمخالفته ـ على الأقل ـ للأصول الشرعية ولروح النظرة الإسلامية للحروب .

رأينا في القضية

إن رأي الباحث في الدراسات التاريخية ، ولا سيما في القضايا التي لم يعاصرها إنما يتكئ بالدرجة الأولى على المصادر المعاصرة أو القريبة الواقعة ـ وهذا ما يعرف في علم الحديث بنقد السند) ـ ثم إنه يتكئ بالدرجة الثانية على النقد الداخلي للواقعة من ناحية منطقيتها ومعقوليتها وملاءمتها لروح عصرها وللقوانين والتقاليد التي كانت مسيطرة إبان وقوعها ، وهذا ـ إذا ما استعرنا مصطلحات علم الحديث مرة أخرى ـ هو ما يعرف (بنقد المتن) .

ونحن في الدراسات التاريخية نأخذ بجانبي النقد معًا ، ونرى أن نقد المتن لا يقل في أهميته عن نقد السند ، وأنهما في مستوى واحد من الأهمية .

أولا: نقد السند :

وواضح من العروض السابقة لقضية إحراق السفن أنها لا تصمد في باب نقد السند ، فسندها منقطع انقطاعًا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أي منهج لنقد السند ، وقد بلغ الانقطاع حدًّا لا يقبله المنهج التاريخي مهما كان تجاوزه وتسامحه بالنسبة لمنهج المحدثين .

فهناك ـ أولا ـ فترة انقطاع عامة في مصادر الدراسات التاريخية الأندلسية والمغربية ، إذا كان فتح الأندلس قد بدأ سنة٩٢هـ وانتهي سنة ٩٥ هـ وعاد طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى المشرق خلال الشهور الأخيرة من سنة٩٥هـ على ما نرجح ـ فإن المصادر التاريخية الأندلسية المدونة لم تظهر إلا في القرن الثالث الهجرى على يد ابن الحكم المصري وابن حبيب (ت٤٣٨هـ) وهو انقطاع في الزمان يدعمه انقطاع في المكان . إذ أن هذين المؤرخين لم يكن انتماؤها للأندلس ، على الرغم من أن ابن حبيب أندلسي الأصل ، لكنهما مثلا المدرسة المصرية الرائدة في تدوين التاريخ الأندلسي .

ومع هذا ، فإن قصة إحراق طارق للسفن لم تظهر في هذين المصدرين ولا في مصادر القرون التالية ، حتى منتصف القرن السادس الهجري ، أي أن هناك انقطاعين ، انقطاعًا يكفي لدحض القصة ـ منذ البداية ـ إذا أخذنا بمنهج المحدثين ، وهو الانقطاع الأول الذي وقع فيها بين فتح الأندلس (٩٣هـ) وظهور مدرسة ابن عبد الحكم ابن حبيب في القرن الثالث الهجري ، وهو انقطاع عام في الدراسات التاريخية الأندلسية . أما إذا تجاوزنا منهج

المحدثين العظيم الذي لم تستطع الدراسات التاريخية ـ حتى اليوم ـ الوصول إليه ، وإن كان من الضروري الاقتراب منه قدر الاستطاعة ، نقول :

إذا تجاوزنا ـ مضطرين ـ هذا المنهج الحديثي ، ونظرنا إلى الواقعة من زاوية الانقطاع الثاني ، وهو الانقطاع الذي وقع بين ظهور المدرسة الأندلسية التاريخية سواء على يد المدرسة المصرية (ابن عبد الحكم وابن حبيب) أم على يد بواكير المدرسة الأندلسية الأصلية في القرن الرابع الهجري (ابن القوطية وابن عريب والخشني وابن الفرضي وغيرهم) فسوف نجد أن لدينا انقطاعًا يصل إلى أكثر من أربعة قرون ونصف القرن (٩٢ ـ فتح طارق ـ على٥٤٨ هـ مع ظهور كتاب الإدريسي ثم كتاب ابن الكردبوس) .

فهل يمكن أن تقبل واقعة انقطع سندها ، وانقطعت كل مصادرها هذا العدد من القرون ؟!

وجدير بالذكر أنه من سوء حظ الدراسات الأندلسية أن كثيرًا من المصادر المتعلقة بفترة الفتح ـ بخاصة ـ وبتاريخ المسلمين في الأندلس ـ بعامة ـ مفقود نتيجة الإتلاف المتعمد الذي قام به رجال الكنيسة المتعصبون في فترات متعددة من التاريخ بعد سقوط

غرناطة سنة٨٩٨هـ(١٤٩٢ . ففي سنة٩٠٥هـ (١٤٩٩هـ) ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أتلفت أعداد كبيرة من المخطوطات بصورة متعمدة ، وذلك تنفيذا للقرار المتعسف الذي اتخذه الكاردينال جيمينيث ـ (ximenez) والذي تسبب في حرق ثمانية آلاف من الكتب العربية في الساحات العامة لغرناطة [١] . أما بقية المخطوطات التي نجت من هذا التلف المتعمد ، فقد ظلت في حوزة رهبان غير مثقفين ، أو على رفوف بعض المكتبات حتى جمعت من قبل الملك فيليب الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨م وحفظت في دير الأسكوريال [٢] ، ومع هذا فقد احترقت ثلاثة أرباع هذه المجموعة سنة١٠٨٣هـ ١٦٧١م) لاندلاع حريق في الأسكوريال [٣].

وهذه مجرد أمثلة لضياع تراثنا الأندلسي ، تعكس مدى الانقطاع الذي يفصلنا عن كثير من حقائق هذا التاريخ .

---

(1) pascual de gayanzos the history of the mohmmedan dynasties in spaain new york Ix.1964,vol .iPP .vII .

نقلا عن الدكتور عبد الواحد ذنون طه ص١٧ ، ٣٧ في كتابه : (الفتح والاستقرار العربى الإسلامي في شمال إفريقية والأندلس طبع ١٩٨٢ العراق) .

(2) قارن : s.m.Lmamuddin, (sources of muslim history of spain) Journal of the paki-stan historical society , I , 1953 , P , 358 .

(3) pascual de gayanzos, op . cik . vol . Ip . IX .

نقلا عن الدكتور عبد الواحد ذنون طه ص١٧ ، ٣٧ .

ويزيد في صعوبة الأمر أن أيا من المؤرخين الثلاثة الأول الذين رووا هذه القصة وهم الإدريسى وابن الكردبوس والحميرى - الذي نقل عن الإدريسى - لم يذكر لنا واحد منهم أية مصادر سابقة نقل عنها ، حتى يقرب لنا مساحة الانقطاع ، أو يدلنا على بعض الضوء في هذه الظلمات .

كما أن الحميرى - كما أثبتنا - مجرد ناقل حرفي عن الإدريسى ، فلا يعتد به .

وهكذا انتهي إلى أننا لا نملك من ناحية السند - إلا أن نشك - على الأقل - في ثبوت إحراق طارق للسفن .

فإذا أضفنا إلى هذا تطبيق بعض معايير المحدثين في النظر على الرجال الناقلين ، إذ أن ابن الكردبوس كان مجرحا - كما ذكرنا - [١] وأنه لم يكن ثقة في كثير مما يكتبه ، ولربما كان يعتمد على الأقوال الشائعة التي تشبه الحكايات والأساطير في عهده .

أما الإدريسى فإن طبيعته الجغرافية التي من شأنها أن تقبل ما يحكي في الرحلات من بعض المبالغات تجعلنا لا نفرق كثيرا بينه

---

(١) نقلا عن محقق القطعة الأندلسية من كتاب (الدكتور أحمد مختار العبادي) مرجع سابق .

وبين ابن الكردبوس ، وعلى خطا الإدريسي سار الحميري دون تمحيص !!

إذا أضفنا هذا - أي نقد الرجال الناقلين - فإننا نميل إلى رفض هذه القصة من ناحية انقطاع السند وتجريح الناقلين . وهذا هو الأساس المكين في رفض هذه القصة .

ثانيا : النقد التاريخي لمضمون قصة إحراق السفن :

إن التتبع الدقيق لخطوات موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس يجعلنا نتشكك في دعوى إحراق طارق للسفن ، اللهم إلا إذا افتراضنا خياليا محضًا بأن طارق بن زياد كان يثق في أن نتيجة المعركة ستكون لصالح المسلمين ، وهو ما لا يمكن التيقن منه (عقلا) في مواجهة جيش القوط الكبير الذي تحدده أقل الروايات بثلاث أضعاف المسلمين في العدد ، وأكثر من ذلك كثيرا في الإمكانات والعدد . وتصل به بعض الروايات إلى تسعة أضعاف الجيش الإسلامي [١] .

لقد ظهر حرص موسى بن نصير وطارق بن زياد على أرواح

---

(١) أخبار مجموعة : لمؤلف مجهول : ص١٧ وابن الكردبوس. مصدر سابق ص٤٧ والعبر : لابن خلدون :٤/ ١١٧ .

المسلمين في فتح الأندلس منذ بداية التفكير في الفتح ، ولقد كانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك واضحة في هذا الصدد ، فقد أمر واليه موسى بن نصير بأن يتريث في الفتح ، وأن يختبر الأندلس بالسرايا ولا يغامر بأرواح المسلمين [١] .

ولقد استجاب موسى لتعليمات الخليفة ، فأرسل سريتين استطلاعيتين إحداهما بقيادة جوليان حاكم سبتة ، وثانيتهما بقيادة طريف بن مالك [٢] ولما اطمأن موسى على إمكانية الفتح كلف طارقا بالاستعداد لقيادة الحملة ، ثقة منه في شخصية طارق ، وفي حسن بلائه وخبرته ومكانته في البربر المسلمين [٣] .

---

(١) أخبار مجموعة : ص١٦ وابن الكردبوس : مرجع سابق٤٥ .

(٢) أخبار مجموعة ، بتحقيق الإبياري ١٦ ، ١٧ وابن الكردبوس : مرجع سابق ٤٥ ، ٤٦ .

وانظر مجهول : وصف الأندلس وتاريخها بتحقيق حسين مؤنس (مجلد١٨/ ١٩٧٤ مدريد مجلة معهد الدراسات الإسلاميةص١٢).

(٣) وصف الأندلس١٢٨ لمؤلف : تحقيق مؤنس (كان طارقا مسئولا عن عدد كبير من المسلمين البرابرة مثل مصمودة وجرادة وكتامة وزنامة وهوارة ، وقد كان مغيث الروسي يصف طارقا للخليفة سليمان بن عبد الملك بأنه لو أمر المسلمين بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه وهذه دلالات على مكانة طارق (انظر ابن الشباط١٠٣ - ضمن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس تحقيق العبادي مصدر سابق ، وانظر فتح الطيب : للمقري ٣م١٤ بتحقيق مان عباس بيروت١٩٦٨) .

وعندما عبر طارق العدوة الأندلسية ، ودخل الجزيرة الخضراء وقبل أن يتقدم إلى الموقعة الفاصلة ـ موقعة شذونة التي سيلتقي فيها بلذريق إمبراطور القوط بنا في جبل الفتح حصنًا منيعًا ليتحصن به هو ومن معه ، ثم بنا حصن أم حكيم في الجزيرة المسماة باسمها حتى اليوم ، ولم يكتف بهذا بل إنه بنا سورًا يسمى سور العرب يضمن به طريق العودة عند الضرورة . . . (١) وفي الوقت نفسه فقد أرسل طارق كتيبة قوية بقيادة عبد الملك بن عامر المعافري لافتتاح حصن قرطاجنة الذي يقع في سفح جبل طارق (٢) شمال غرب جبل طارق ، وبعد افتتاح هذا الحصن وقعت كل المناطق المحيطة بمنطقة المضيق بيد المسلمين ، وتولى عبد الملك المعافرى مسؤولية السيطرة على الجزيرة الخضراء يساعده في ذلك جوليان ، وبهذا حميت مؤخرة جيش طارق وأصبحت خطوط اتصالاته مع شمال إفريقية آمنة ، (٣) وأقام المسلمون حزام أمان يربطهم بالشاطئ الإفريقى ، ويضمن لهم عدم المهاجمة ويؤمن لهم

---

(١) البيان المغرب : لابن عذاري المراكشي : تحقيق بروفنال ٢/ ٩ طبع دار الثقافة بيروت ، وانظر تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادى ٦٨ .

(٢) انظر ابن عذارى المصدر السابق ٢ / ٩ ونفح الطيب : ١ / ٢٣٣ والفتح الإسلامي للأندلس ك محمد عبد الحميد عيسى ١١١ طبع القاهرة ١٩٨٥ .

(٣) الفتح الإسلامي والاستقرار العربى الإسلامي : عبد الوهاب ذنون طه : ص ١٦٥،١٦٤ .

طريق الإمدادات والارتداد إذا ما قدر لله لهم مكروها [١] .

وهذه الإجراءات كلها تقتضي حسابا للهزيمة والانسحاب ، ووضع الضمانات الكفيلة بحماية جيشه المنسحب ، وهو ما يتناقض مع القول إحراقه للسفن ، لأن إحراق السفن تقوم على أساس معادلة محددة (النصر أو الموت) ولا مكان فيها للانسحاب .

وعندما اقترب طارق مع معركته مع القوط وعلم بعدد الجيش القوطي الكبير أرسل إلى موسى يطلب منه المدد ، أو كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » : (يستنقذه ويخبره بأن ملك الأندلس قد زحف إليه بما لا طاقة له به) [٢] . وسلوك طارق عل هذا النحو يؤكد الاتجاه العاقل الحكيم والحريص على أرواح المسلمين ، فهو لا يلجأ إلى مغامرات غير مأمونة ولا يميل على أسلوب المجازفة بأرواح المسلمين ، وحتى عندما يهزم طارق جيش القوط ، ويتقدم فيفتح كورة شذونة ، ثم يتقدم فيلاحق المنهزمين ، ويفح قلعة استحة ، ومورور في محافظة أشبيلية ، ويتمكن من احتلال طليطلة

---

(١) الفتح الإسلامي للأندلس: ص١١١ .

(٢) انظر: مؤلف مجهول : أخبار مجموعة :ص١٧ وتاريخ المغرب والأندلس ص٦٩ .

عاصمة القوط وبعض القلاع والوديان حولها [1] ، هنا يتوقف طارق عند هذا الحد ، ويستقر في طليطلة ويرسل موسى بن نصير يدعوه لمساعدته ، ويرسم له خطة القدوم ليكمل فتح المناطق التي لم يتمكن طارق ولا مساعدوه من فتحها . وفعلا يتقدم موسى سنة (٩٣هـ) بجيش قوامه ثمانية عشر ألف جندي أكثرهم من العرب ، فيفتح أشبيلية وقرمونة وماردة وغيرها من مدن الغرب الأسباني حتى يلتقي بطارق على نهر التاجة . فمثل هذه الحيطة من طارق ، وهو يحتل عاصمة البلاد تدل على أنه قائد حكيم يقدر لخطواته وقعها ولطاقته حجمها ، ولا يميل إلى المغامرات الانتحارية أو غير المحسوبة .

وهكذا ـ من خلال هذا العرض لوقائع جهود طارق في فتح الأندلس ـ لا نجد ما يدلنا على وجود طبيعة اندفاعية عند طارق ، بل نجد كل الوقائع تؤكد اعتماده على التخطيط وتجنب المخاطرة بالأرواح والمغامرات غير المحسوبة .

أما ما تذكره بعض المصادر من أنه قد اندفع إلى طليطلة بعد أن

---

(١) انظر الكامل : لابن الأثير : ٤/ ٥٦٤ ، ونفح الطيب ١/ ٢٦١ والفتح والاستقرار العربي الإسلامي : ص١٧٠ .

أرسل فرقا من جيشه على مالقة ومرسية وقرطبة [١] وهو ما يفهم منه أنه اندفع نحو طليطلة بعدد قليل ، وأن ذلك كان مغامرة منه ، فالصحيح أن طارقًا لم يرسل إلا حملة مغيث الرومي إلى قرطبة بل هناك من يرى أنه هو الذي فتح قرطبة أيضا [٢] ، وبديهي أنه هو الذي فتح بجيشه الموحد بقية المدن التي كانت في طريقه على طليطلة .

وأما مالقة ومرسية فثابت أن موسى بن نصير هو الذي فتحهما في حملته التي أكمل بها فتوحات طارق [٣] ، كما أنه من الضروري القول بأن تقدم طارق نحو طليطلة كان عملا عسكريا ضروريا حتى يمنع القوط من التقاط أنفاسهم وتوحيد صفوفهم [٤] ، وهو الأمر الذي قدره له موسى بن نصير بعد أن التقى به في طليطلة ، وقد سارا معا بعد ذلك لفتح بقية مدن الأندلس بعد أن كان موسى قد اقتنع بوجهة نظر طارق في التخطيط للفتح ، وبضرورة استقرار

---

(١) انظر أخبار مجموعة : ص١٩ ، ٢٠ والكامل : ٤ / ٥٦٣ ، والبيان المغرب : ٢ / ٩ ونفح الطيب : ١ / ٢٦٠ .

(٢) مجموعة تاريخ الأندلس : لابن شباط :ص١٤١ ، تحقيق العبادي ، مدريد ، والبيان المغرب ٢/ ١١ .

(٣) البيان المغرب : ٢ / ١١ .

(٤) د/ عبد الواحد طه : مرجع سابق :ص١٧١ .

المسلمين الدائم في الأراضي المفتوحة ، وهذا الأمر واضح جدًّا من التفاهم المتبادل ، والتعاون المشترك الذي سار بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة [١] في الوسط والشمال الأسباني .

لكن هناك أمرًا آخر أمكن رصده في أسلوب طارق في فتح الأندلس ، وهو أمر يفتح لنا الباب للتعرف على شتى جوانب المنهج الحربي لهذا القائد ، كما يدلنا ـ عند التحليل العميق ـ على رافد من الروافد الاحتمالية التي انطلقت منها قصة إحراق طارق للسفن .

لقد تحدث عدد من مؤرخي الفتح الإسلامي لأسبانيا ـ من أمثال ابن الكردبوس والمقري ـ عن بعض الأساليب التي كان يتبعها طارق في تحطيم الروح المعنوية عند خصومة القوط ، وقد ذكروا منها أنه عمد إلى بعض الأسرى ، فأمر بذبحهم وطبخهم ومن ثم قام بأكل لحومهم المطبوخة هو ومن معه في الجيش .

يقول ابن الكردبوس ـ أحد الثلاثة الذي عزيت إليهم قصة إحراق السفن ـ : (ورحل لذريق قاصدا قرطبة يريد طارقا ، فلما تدانيا تخير لذريق رجلا شجاعًا عارف بالحروب ومكائدها ـ وأمره

(١) عبد الواحد ذنون : مرجع سابق :ص١٧١ .

أن يدخل عسكر طارق فأمر ببعض القتلى أن تقطع لحومهم وتطبخ فأخذ الناس القتلى ، فقطعوا لحومهم وطبخوها ، ولم يشك رسول لذريق أنهم يأكلونها ، فلما جن الليل أمر طارق بهرق تلك اللحوم ودفنها ، وذبح بقرًا وغنمًا وجعل لحمها في تلك القدور .

وأصبح الناس فنودي فيهم للاجتماع إلى الطعام فأكلوه عنده ، ورسول لذريق يأكل معهم ، فلما فرغوا انصرف الرسول إلى لذريق وقال له : أتتك أمة تأكل لحوم الموتى من بني آدم ، صفاتهم الصفات التي وجدنا في البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ، ووطنوا على الموت أو الفتح ، فداخل لذريق وجيشه من الجزع ما لم يظنوا)[١] .

وبدهي أن هذه القصة لم تقع ، وإنما هي حيلة من طارق بن زياد في تحطيم الروح المعنوية للخصم ، إذ إنه أراد أن ينقل هذه الصورة

(١) تاريخ الأندلس من الاكتفاء :ص٤٧٧ ، ٤٨ بتحقيق أحمد مختار العبادي – نشر مدريد ، وانظر مؤلف مجهول (وصف الأندلس وتاريخه) بتحقيق حسين مؤنس ص١٢٨ مجلة معهد الدراسات الإسلامي بمدريد عدد١٩٧٤ / ١٩٧٥ (المجلد ١٨) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية : ص٣٥ ، ونص ابن القوطية موجود في الصفحات السابقة عند الحديث عن فتح طارق للأندلس في المصادر الأندلسية .

عن طريق الجواسيس الذي كان يعلم بوجودهم ، وبأنهم سينقلون ما يرونه إلى القوط وإمبراطورهم وقائدهم لذريق [١].

ونحن نرى في هذه القصة جرأة طارق بن زياد في اللجوء إلى خدعة تقوم على أساس غير شرعي ، فالشريعة الإسلامية لا تقبل ـ بداهة ـ ذبح الأسرى ، ولا حتى طبخ الموتى إذا كانوا قد ماتوا ، ولا أكلهم في حال مثل حال طارق وجيشه ، لكنها الحرب التي تقوم على الخدعة ، والتي يباح فيها مثل هذا اللون من الخداع وغيره . لكن لا يباح فيها ـ بالطبع ـ ارتكاب مثل هذه الأعمال الحقيقية .

وهنا نتساءل :

ألا يمكن أن تكون قصة إحراق طارق للسفن حيلة مشابهة لهذه الحيلة ؟

إن ثمة عناصر مشتركة بين الحيلتين ، فكلاهما غير جائزة ـ على الحقيقة ـ شرعًا وكلاهما كان من الممكن ـ لو صحت حقيقته ـ أن تلقى احتجاجًا من جمهور المسلمين أو من بعضهم على الأقل ،

---

(١) انظر الفتح الإسلامي :ص١١٧ وما بعدها .

وكلاهما يهدف إلى تثبيت المسلمين وترويع القوط والإيحاء إليهم بأنهم أمام جيش غير عادى ، يؤثر الموت على الحياة ، ويركب في سبيل النصر أصعب المراكب .

إن هذا ما نراه ينسجم مع أسلوب طارق الحربي ، ولهذا فنحن نميل إلى أن يكون طارق قد أمر بإبعاد السفن عن الشواطئ في اتجاه الساحل المغربي ، وعندما ابتعد الجيش ـ بدوره ـ عن الشواطئ متجها إلى شذونة لضرورات الفتح أمر طارق بإشعال النار في بعض الأخشاب أو الأشجار ، ثم أوهم المسلمين والقوط على السواء بأن الأسطول قد أحرق ، وأنه لا سبيل أمام المسلمين إلا القتال أو الموت ، وأنه يجب على القوط أن يواجهوا جيشًا قد باع كل شيء ، وليس أمامه إلا طريق الاستماتة في سبيل النصر .

ويؤكد رأينا هذا ذلك الاحتمال الآخر القائم على أن كلمة (حرق) إنما كانت في الأصل بالخاء (خرق) وأن تصحيفا وقع فيها عند النطق ، كما يؤكد رأينا كذلك تلد البديهية العقلية التي تفيدنا أن أي هدف يمكن تحقيقه دون خسارة أولى من تحقيقه بخسارة فضلا عن الخسائر الفادحة ، وبالتالي فما دام في طريق طارق تحقيق هدفه دون خسائر فما الذي يدعوه للقيام بمثل هذا

العمل الذي قد يؤدى إلى خسائر فادحة في الأرواح والأموال ؟

ويرى الدكتور محمد عيسى أن بعض قادة طارق ، وهم الذين قاموا بإيهام جواسيس لذريق بأكل المسلمين للحوم الآدميين ، هم الذين يمكن أن يقوموا بمثل هذا الإيهام ، فيطلقوا إحراق المراكب ، وهي مجرد إشاعة سرت بين المسلمين فحسب ، وتحدثوا بها لإيقاع الرعب في قلوب عدوهم [١]. وهذا ما حدث بالفعل ، فقد عاد جواسيس لذريق ليقولوا له : أتتك أمة تأكل لحوم الموتى ، قد أحرقوا مراكبهم ووطنوا أنفسهم على الموت أو الفتح .

فكأن الدكتور عيسى يرى أنها حيلة اشترك فيها قادة جيش طارق ، كي يحققوا هدفين في آن واحد : أولهما خاص بالقوط ، وثانيهما خاص بجنود الجيش الإسلامي .

وأيًّا كان الأمر ، فالقصة - في رأينا من خلال هذه القرائن والاحتمالات - أدخل في باب الحيل والمكائد الحربية منها في باب الحقيقة التاريخية .

وثمة جانب آخر من جوانب الفتح ، يتصل اتصالا وثيقًا بقصة

---

(١) الفتح الإسلامي للأندلس :ص١١٧ .

إحراق طارق للسفن غير الجوانب التي تحدثنا عنها ، وهذا الجانب يتصل بتلك القصة التي اختلف المؤرخون حولها وهي قضية ملكية السفن التي عبر عليها الجيش الفاتح .

فالدكتور حسين مؤنس ـ كمثال ـ ينفي قصة إحراق السفن ـ كما ذكرنا ـ على أساس أن هذه السفن كانت ملكا لجوليان ، وأنه ـ بالتالي ـ لا يجوز للمسلمين أن يحرقوا سفن غيرهم [١]. ويكاد الأسلوب التقريري للدكتور مؤنس يوحي بأن عبور المسلمين على سفن جوليان ـ وليس على سفن إسلامية ـ قضية مسلمة وبديهية .

وقد يزكي رأي أستاذنا الدكتور مؤنس ما يذكره الرقيق القيرواني ـ من مؤرخي القرن الخامس ـ أن جوليان (جعل يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم فجعل ينقلهم فوجًا فوجًا إلى ساحل الأندلس وقد تقدم « أليان » إلى أصحاب المراكب أن لا يعلموا بهم) [٢].

---

(١) فجر الأندلس :ص٦٩ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب :ص٧٤ ، بتحقيق المنجى الكعبى .

فكان الأمر ـ كما يوضحه نص الرقيق القيرواني ـ أمر خطة عسكرية أو (حيلة) من حيل طارق ، وليست عوزا أو حاجة من المسلمين لسفن جوليان أو لتجار البحار وقراصنتها ، وهو الأمر الذي جعل الدكتور أحمد مختار العبادي ينبري للدفاع عنه ، لتأكيد أن المسلمين كانت لهم سفنهم وهو الشيء البديهي الذي لا يقبل النقاش ؛ لأن المسلمين كانوا قد أصبحوا من المتنافسين على السيطرة على البحار ، وقد مرّ عليهم نحو ستين سنة على انتصارهم الرائع في موقعة ذات الصواري (٣٥ هـ) . ولا يمكن ـ عقلا ـ أن يكونوا حتى تاريخ فتح الأندلس (٩٢هـ) لا يملكون ما يكفي لعبور بعد جيش مثل جيش طارق ، كما أننا نجدهم قد تمكنوا من العبور بعد سنة واحدة بجيش جديد قوامه ثمانية عشر ألف جندي بقيادة موسى بن نصير .

ونحن لا نرى أن القضية مشكلة على النحو الذي عالجها به بعض المؤرخين ، كما أننا نرى أنه لا تناقض بين الروايتين ، فقد يمكن أن تكون الحيلة الحربية قد أوجبت عبور الجيش على النحو الذي أورده الرقيق القيرواني ، مع رصد ومراقبة من السفن الإسلامية المرابطة على الشاطئ المغربي والحارث تشق طريقها ـ

بوضوح ـ نحو الشاطئ . قامت هذه السفن الراصدة بحمل المؤن وبحمل عدد آخر من الجنود ، وبمجرد نزول الجيش الإسلامي - أو معظمه ـ على الشواطئ الأسبانية بدأت السفن الإسلامية المتربصة والحارسة تشق طريقها ـ بوضوح ـ نحو الشاطئ الأندلسي ـ بعد أن نجحت الحيلة ، وعبر جيش طارق بأقل معارك ممكنة ، إذا لم تحدث إلا موقعة جبل طارق التي خاضها المسلمون في مواجهة الحامية التي تحمي الثغور والشواطئ الأسبانية قبالة المغرب .

بل إن وجود حامية أسبانية على الشواطئ الأسبانية ، وهو أمر نراه ضروريا وثابتا ـ يجعل من خداع طارق وتجنبه الإفصاح عن غايته في الفتح أمرًا تقتضيه الظروف العسكرية ، فلو كانت الشواطئ بلا حماية لما أبه طارق بالأمر .

لقد كان جبل طارق يمثل على امتداد التاريخ موقعًا استراتيجيًّا وهمزة وصل بين عدوتي المغرب والأندلس ، وكان التحكم في مضيق المجاز ضروريًّا ضد أي عدوان على أسبانيا من الناحية الجنوبية .

ولقد أدرك الفينقيون منذ القدم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتي المغرب والأندلس فأقاموا على هذا الجبل أبراجا للمراقبين [١]. ولا شك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوى المسلمين في الجانب المغربي المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة ، لأن مضيق المجاز يفصل بينهما ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته خمسة عشر كيلو مترا ، وهي مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الشاطئين المغربي والأسباني [٢].

ويضاف إلى هذا أن الغارات التي شنها كل من يوليان وطريف على سواحل أسبانيا الجنوبية ، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كي يأخذوا حذرهم من أي هجوم يقع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل أن يغفل القوط بعد ذلك هذه القاعدة العسكرية مهما بلغ ضعفهم بدون حراسة أو مراقبة [٣]. وكل هذا جعل من الطبيعي أن يأخذ طارق للأمر أهبته ، وأن يلجأ إلى أسلوبه في الحيل الحربية ،

(١) تاريخ المغرب والأندلس :ص٦١ نشر إسكندريةط١ .
(٢) المكان السابق .
(٣) المكان السابق .

وبالتالي ، ومع امتلاك المسلمين لأسطول كبير[1] يموه على أعدائه بالعبور على سفن غيره دون أن يعنى ذلك مغامرة بأرواح المسلمين على سفن أجنبية فقد كان الأسطول ـ كما ذكرت ـ يراقب الحركة كلها ـ كما أتوقع ـ عن كثب ، وعلى أهبة الاستعداد لأي طارئ جديد .

وهكذا ـ من خلال التحليل لقضية (السفن) التي عبر عليها الجيش الإسلامي ـ يتجلى لنا أن السفن التي عبر عليها المسلمون كانت لجوليان أو للتجار ـ كما ذكر أستاذنا الدكتور مؤنس وغيره وهو ما نميل إليه من خلال تحليلنا السابق ولكن ذلك كان لحيلة عسكرية وليس لعدم ملكية المسلمين لسفن كافية ، وبالتالي فلا نجد مجالا لاعتراض الدكتور العبادي الذي ذهب يثبت فيه أن المسلمين كانوا يملكون السفن الكافية .

فالعبور على سفن جوليان أو التجار لم يكن لعدم الملكية بل لحيلة عسكرية ، وإحراق طارق للسفن التي تم العثور عليها غير

---

(١) لا يعقل أن يعبر جيش قوامه سبعة آلاف – في الطلعة الأولى – على أربع سفن هي التي ورد ملكية جوليان لها : مؤلف مجهول : وصف الأندلس وتاريخه ، مجلد ١٨ عدد ١٩٧٤ ص١٢٨ ، وانظر العبادي ٥٩.

وارد ، لأنها ملك لغيره ، كما أن إحراق الأسطول (المراقب) ليس له ما يبرره فهو أسطول يحمى الشواطئ ويحمى الجيش الإسلامي من خلفه فلربما تأتى قوى رومانية أو قوطية من الخلف ، ولم تكن مهمة الأسطول فقط ـ كما ينظر بعضهم إلى القضية ـ مجرد انتظار المسلمين حتى ينسحبوا ـ إذا انهزموا ـ ليركبوه عائدين .

بل هناك ملحظ آخر ، فإن وجود سفن للقراصنة ولجوليان قادرة على حمل الجيش الإسلامي أو بعضه ـ يوجب وجود أسطول إسلامي على الشواطئ ، فلربما حاولت هذه السفن ـ وهي نصرانية مهما أظهرت من ولاء ـ أن تغدر بالمسلمين وتضربهم من الخلف ، فيق الجيش بين فكي الكماشة ، وهو ما لا يبرره عقل ولا توجيه ظروف ، ولا نعتقد أن طارق كان يورط فيه جيش المسلمين دون سبب معقول !!

ونحن نرى ـ من كل ذلك ـ أن إحراق السفن أمر لم يكن جائزًا من الناحية الاستراتيجية ، وليس له ما يبرره ، بل هناك ما يمنعه ، سواء كانت السفن لجوليان أو للتجار القراصنة أو للمسلمين .

وثمة تساؤلات أخرى ـ غير جوانب النقد السابقة ـ تتصل

كلها بالنقد التاريخي لهذه القصة ـ من ناحية مضمونها ـ بعد أن وصلنا إلى ترجيح رفضها من ناحية سندها التاريخي والمصادر التي اتكأت عليها .

فبالإضافة إلى ما ذكرناه من دلالات خطوات الفتح وأسلوب طارق وموسى في الحيطة والحذر والحرص على أرواح المسلمين ، واتخاذ طارق كل وسائل تأمين الانسحاب ، ومهارته في استعمال الحيل التي نرجح ، (إشاعة إحراق السفن) واحدة منها ، وصعوبة ـ إن لم يكن استحالة ـ حرق السفن على أساس أنها ـ في بعضها على الأقل ـ ملك لغير المسلمين ، وأنه لا لزوم لحرقها سواء كانت للمسلمين أو لغيرهم ، فالحيل لا تعوز في الاستعاضة عن هذا الإحراق .

بالإضافة إلى كل هذا ، فثمة تساؤلات أخرى نراها ضرورية في باب نقد مضمون هذه القصة .

فهذه القصة ليس فيها ما يدلنا على الوقت الذي وقع فيه الحريق . . هل وقع بعد عبور طارق مع طالعته الأولى ، وهذا يبدو مستبعدا من أول وهلة ـ بناء على ما صح من أن طارقًا احتاج إلى مدد ،

وأمده موسى بن نصير ـ فعلا ـ بخمسة آلاف ، وليس صحيحا ما تذكره بعض الروايات بصفة إجمالية ـ بأن طارق عبر بجيش مكون من اثني عشر ألف جندي وسبعمائة (عشر آلاف من البربر وألفين من العرب وسبعمائة من السودان)[١].

ولعل هؤلاء المؤرخين أنفسهم يقصدون أن هذا العدد عبر على مرتين ، وليس في مرة واحدة ، وإنما مجرد اختصار منهم ، وبالتالي فالاحتمال الأقوى : أن يكون طارق قد فعل ذلك ـ لو فعله ـ بعد عبور الجيش كله . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى بن نصير بعدده الذي بلغ ثمانية عشر ألاف جندي ، والذي عبر بعد سنة واحدة ليساعد طارق على الفتح ويلتقي بطارق وجيشه على نهار التاجه . ويلزم من هذا أن يكون جيش موسى هذا قد استحدث أسطولًا خلال هذه السنة ، وأن يكون أصلا في غير حاجة إلى أسطول طارق ، كلاهما نستبعده ، فالمسلمون الذي قالت بعض الروايات أنهم استأجروا ـ أو اقترضوا ـ بعض السفن من جوليان

(١) وصف الأندلس وتاريخه : لمجهول : ص١٢٨ وانظر الطبري ٨ / ٨٢ (تاريخ سنة٩٢) طبع دار الفكر بيروت ويرى ابن خلدون أن العرب كانوا ثلاثمائة فقط : العبر ٤ / ١٧٧ .

أو التجار لم يكونوا ليضحوا بأسطول يملكونه !!

ولقد ثبت أن المسلمين كانوا جادين في البحث عن سفن ، وأن موسى كان يحث طارق على تملك ما يستطيع تملكه من السفن ـ وليس إهدار ما معه من السفن !!

وكما يقول ابن القوطية فقد (ذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقًا مولاه إلى طنجة وما هنالك ، فافتتح مدن البربر وقلاعها ، ثم كتب إلى موسى : إنني قد أصبت ست سفائن ، فكتب إليه موسى : أن أتمها سبعا ثم سيرها على شاطئ البحر واستعد لشحنها)[1] .

ففيم يكون إذن ـ مع هذا البحث عن السفن ـ إهدارها في غير ما مصلحة ملحة أو ضرورية ؟!

ومن الغريب أننا ونحن نستعرض تطور الأحداث في فتح الأندلس وما تلاه واتصل له من أحداث ، لا نجد أي صدى ـ فضلا عن أيه إشارة صريحة ـ لحادثة السفن هذه ، وبالرغم من أن هناك بعض الأحداث التي كانت توجب وروده بطريقة أو أخرى .

فحسب ما يرويه لنا بعض المؤرخين من أن هناك خلافا وقع

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس :ص ١٢٠ .

بين طارق وموسى بن نصير ، وأن موسى قد حقد على طارق ، وساءه توغله في البلاد دون إذن منه . . وكتب إليه ـ كما يقول ابن خلدون ـ يتوعده ويأمر ألا يتجاوز مكانه [١]. ألم يكن حادث طارق إحراق السفن ـ لو وقع ـ سلاحا في يد موسى يستغله للانتقاص من جهود طارق ولتسجيل مخالفة عليه على هذا المستوى ومن الأهمية ؟

ولقد كان إحراق السفن ـ لو وقع ـ أدعى لتأكيد رأي موسى في أن طارقًا قد غامر بأرواح المسلمين .

وبما أننا لا نؤكد هذا الرأي ، ونرى أن الخطة كانت باتفاق مسبق ، وأن طارقًا التزم الحكمة واستدعى موسى والتقى معه وسار معًا بعد نهر التاجة ، وأن موسى فتح مدنا لم يفتحها طارق ، فكملا بعضهما ، وأن طارقًا إنما كان ضابطًا لموسى بن نصير ، وكل أمجاده تنسب ـ أيضا ـ إلى موسى [٢] .

بما أننا لا نؤيد هذا الرأي فنحن لا نعول على قضية خلاف طارق مع موسى لأننا لم نجد لها سندا تاريخيًّا ولا منطقيًّا .

---

(١) العبر : ٤ / ١١٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) انظر العبادي : مرجع سابق : ص٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .

لكننا إذا كنا قد جاوزنا هذه المسألة ، فنحن لا نتجاوز المسألة الثانية التي تتصل بالخلاف الثابت والمعقد بين الخليفة سليمان بن عبد الملك والقائد موسى بن نصير عندما رفض الأخير التباطؤ بهداياه حتى تؤول إلى موسى حين يكون أخوه الوليد قد لقي ربه ، والقصة مشهورة تشبه أن تكون متواترة [١] .

فلماذا لم يواجه سليمان خصمه موسى بقصة إحراق السفن ؟ تلك القصة التي لم يقم موسى بتوجيه أي لوم أو عقاب لضابطه طارق عليها ، فكأنه رضي عنها أو كأنها كانت من تخطيطه في الفتح .

على أننا فيما وصل إلينا من وثائق الدولة الأموية وفتوحاتها وخلفائها ورسائلهم ومكاتباتهم وسائر ما يتصل بهم ، لم نجد أي صدى لهذه القصة في هذه الوثائق ، فكيف يمكن أن يقع هذا الصمت المريب إزاء قصة قدر لها أن تنال هذه الشهرة ؟

الحقيقة أنه ليس ثمة إلا تفسير واحد - في رأينا الذي انتهينا إليه والذي نؤمن به - وهو أن هذه القصة لم يكن لها وجود أصلا - حتى يكون لها صدى . وهل يمكن أن تكون عيون التاريخ عمياء -

---

(١) انظر : أخبار مجموعة : ص٣٥ ، ٣٦ ، والبيان المغرب ٣ / ٢٠ ، ٢١ وانظر العبادي : مرجع سابق ٧٩ .

خلال هذه الأحقاب المتطاولة ـ فلا ترى أي بصيص ، ولا تلمس أية بصمة ، ولا تسجل أي أثر يضع أيدينا ـ بيقين ـ على دليل واحد من أدلة الإثبات ، أو نقطة ضوء واحدة موثقة ؟!!

كلا ، إن عيون التاريخ أقوى من ذلك بكثير ، وكل ما هنالك أن التاريخ الصحيح لا يرصد الأساطير ، ولا يأبه بالشائعات والحيل التي لا تقوى على الوقوف ـ كوقائع ـ على قدميها .

وإن التاريخ لقادر على رفضها مهما كان رصيدها من الشيوع في عالم الحكايات الأدبية أو الأساطير الشعبية .

وهذا هو الجدير بتلك الأسطورة الغريبة ، وسيرة صحابتهم وتابعيهم ، والمصادر الصحيحة لتاريخهم والمناقضة لمنطق الوقائع والأشياء .

وهذه هي كلمتنا الأخيرة ، ورأينا الذي انتهينا إليه في هذه القضية ، قضية إحراق طارق بن زياد للسفن .

مراجع البحث

١ ـ أخبار الزمان : للمسعودي ـ نشر مكتبة الأندلس ـ بيروت .

٢ ـ أخبار مجموعة فتح الأندلس وذكر أمرائها : لمجهول ـ تحقيق إبراهيم الإبياري ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٠ هـ .

٣ ـ الإسلام في أسبانيا : للطفي عبد البديع ط . ٢ ـ مصر .

٤ ـ الإسلام والحضارة العربية : لمحمد كرد علي ـ طبعة مصر .

٥ ـ الإمامة والسياسة : لابن قتيبة الدينوري .

٦ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : لابن عذاري المراكشي .

٧ ـ تاريخ الإسلام السياسى : لحسن إبراهيم ـ ط . ٩ ـ مصر .

٨ ـ تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية ـ تحقيق إبراهيم الإبياري ـ نشر دار الكتب الإسلامية ـ بيروت ـ القاهرة .

٩ ـ تاريخ إفريقيا والمغرب : للرقيق القيرواني ـ تحقيق المنجى الكعبي ـ نشر رفيق السقطي ـ تونس ـ ١٩٦٨ م .

١٠ ـ تاريخ الأندلس : لابن الكردبوس ـ مقدمة العبادى ـ طبع معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ م .

١١ ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة : للدكتور عبد الرحمن الحجي : طبع دار القلم بدمشق والكويت ـ الطبعة الأولى ١٣٩ هـ .

١٢ـ تاريخ الرسل والملوك : للطبرى ـ طبعة مصورة من مطبعة الحسين بمصر ـ نشر دار الفكر ـ بيروت .

١٣ ـ تاريخ علماء الأندلس : لابن الفرضي .

١٤ ـ تاريخ غزوات العرب : للأمير شكيب أرسلان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٥ـ تاريخ المغرب والأندلس : للدكتور أحمد مختار العبادي ـ طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ـ ١٩٦٦ م .

١٦ ـ جذوة المقتبس : ـ للحميدى ـ شنر دار الكتب الإسلامية والكتاب المصري واللبناني ـ ط . ٢ ـ ١٩٢٣ م .

١٧ ـ الحقيقة التاريخية في فتح الأندلس : للدكتور محمد عبد الحميد عيسى ـ ط . ١ ـ القاهرة ـ سنة ١٩٨٥ م .

١٨ ـ حول دول الإسلام في الأندلس : لمحمد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجى ـ ط . ٤ ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م .

١٩ـ الدول العربية في أسبانيا : للدكتور إبراهيم بيضون ـ طبعة بيروت .

٢٠ ـ الروض المعطار : للحميرى .

٢١ ـ رواية فتح الأندلس: لجورجي زيدان ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت .

٢٢ ـ صلة السمط وسمة المرط : لمحمد بن على الشباط المصري التوزي ـ تحقيق أحمد مختار العبادي ـ مدريد ـ ١٩٧١ م .

٢٣ ـ العبر : لعبد الرحمن بن خلدون ـ الطبعة الرابعة المصورة ـ دار الكتب العلمية ـ ١٩٧٩ م .

٢٤ ـ الفتح الإسلامي للأندلس : الدكتور محمد عبد الحميد عيسى ـ ط .١ القاهرة ـ سنة ١٩٨٥ م .

٢٥ ـ فتح المسلمين للأندلس : لمجهول ـ تحقيق حسين مؤنس ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية ـ سنة ١٩٧٤ م .

٢٦ ـ الفتح و الاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقية

والأندلس : للدكتور عبد الواحد زنون طه ـ طبع ١٩٨٢ م ـ العراق .

٢٧ ـ فتوح مصر والمغرب والأندلس : لابن عبد الحكم المؤرخ المصري ـ نشره المستشرق تشارلز توري ، وأخيرًا حققه في مصر الأستاذ عبد المنعم عامر .

٢٨ ـ فجر الأندلس : لحسين مؤنس ـ الطبعة الثانية ـ سنة١٤٠٥ هـ ـ الدار السعودية للنشر .

٢٩ ـ قادة فتح المغرب : للأستاذ محمود شيت خطاب ـ طبعة دار الفكر .

٣٠ ـ قرطبة في العصر الإسلامي : الدكتور أحمد شكري ـ الطبعة العاشرة .

٣١ ـ قضاة قرطبة : للخشني .

٣٢ ـ الكامل : لابن الأثير ـ طبع دار صادر ـ بيروت .

٣٣ ـ كتاب تذكاري : لقسم اللغة الغربية وآدابها بجامعة الكويت ١٩٧٦ / ١٩٧٧ م .

٣٤ ـ مبتدأ خلق الدنيا : المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب ـ ت ٢٣٨ هـ .

٣٥ ـ المتين : لأبي مروان بن حيان القرطبي .

٣٦ ـ محطات أندلسية : لمحمد حسن قجة ـ ط . دار السعودية .

٣٧ ـ مع المسلمين في الأندلس : لعلي حبيبة .

٣٨ ـ المقتبس : لأبي مروان بن حيان القرطبي .

٣٩ ـ موسوعة التاريخ الإسلامي : للدكتور أحمد شلبي ـ طبع القاهرة .

٤٠ ـ نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب : لأحمد المقري التلمساني ـ طبع بيروت .

٤١ ـ وفيات الأعيان : لابن خلكان ـ نشر محيي الدين عبد الحميد .

فهرس

الموضوع الصفحة